جامعة ابن طفيل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
القنيطرة

مسلك التاريخ والحضارة
وحدة : التاريخ الجهوي، الفصل الخامس

سلسلة المحاضرات :
17/14

المعالم التاريخية والأثرية بمنطقة الغرب.
توظيف التراث في التنمية الجهوية.

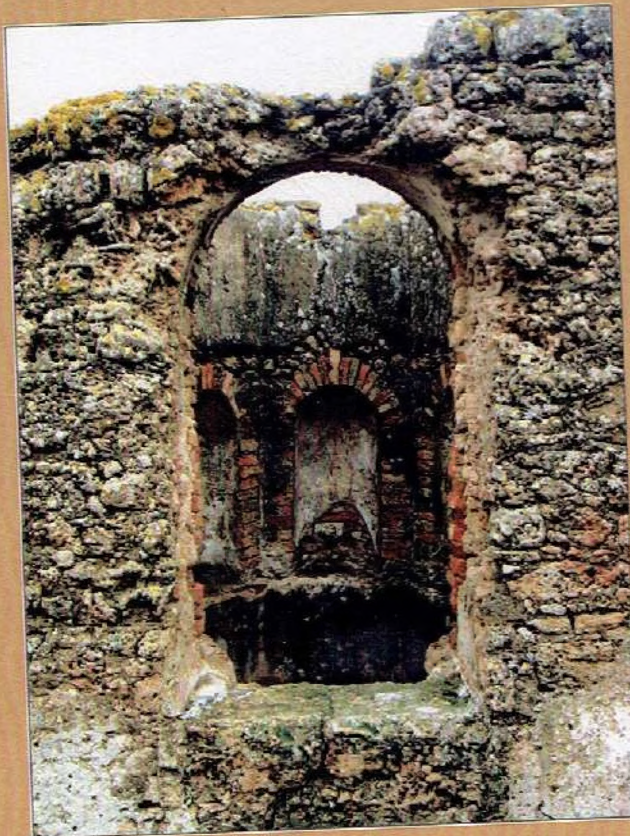

السنة الجامعية
2017 - 2018

ذ. سعيد البوزيدي

المعالم التاريخية والأثرية بمنطقة الغرب،
توظيف التراث في التنمية الجهوية.

مقدمة

إلى حد قريب، ظلت منطقة الغرب غابة في المقررات الدراسية والجامعية، وكانت الصورة النمطية التي تُقدم عنها، أنها منطقة فلاحية بامتياز ذات طابع بدوي، وأن تاريخها مربط بالمناطق والحواضر المجاورة لها. ومع إحداث الجامعة بالمنطقة بدأت الاهتمامات بهذه المنطقة الفلاحية بامتياز، وتولت الدراسات وتنوعت في كل الأقطاب، وظهرت اجتهادات ودراسات لباحثين من الغرب ترفع صوتها للتعريف بالمواقع التاريخية والأثرية التي تزخر بها منطقة الغرب. واعتماد النظم الجديد في الجامعة وإحداث التاريخ الجهوي تم تسطير وحدات دراسية تخص المواقع التاريخية والأثرية بمنطقة الغرب. أبانت السنوات الأولى من تطبيق المقررات الجهوية أن الطالب الغرباوي يجعل الكثير عن المواقع التاريخية والأثرية التي يسكن بجوارها وأن فرصة دخوله إلى الجامعة وإطلاعه على هذا الموروث التاريخي قوت من عزيمته العلمية فأصبح يطالب الاشتغال في بحوثه الجامعية على المواقع والأحداث التاريخية التي تجعله يرتبط أكثر بالمنطقة أو الجهة التي ينحدر منها. وهناك من الطلبة من تبنى مشروع التعريف بالمواقع التاريخية والأثرية القريبة منه واتخذها مطية لتحقيق مشاريع تنموية محلية من قبيل خلق جمعيات وإحداث منتديات ثقافية وعلمية وتقديم خدمات سياحية ثقافية.

كان من توالي المجهودات أن أصبحت المواقع التاريخية والأثرية بمنطقة الغرب إحدى الرافعات التي انتبه إليها المسؤولين عن الشأن المحلي، فبدأ الطلب على المونوغرافيات وتاريخ الجهة. وكان لظاهرة المهرجانات الثقافية التي تعرفها المنطقة دور في اهتمام المنتخبين بالمواقع التاريخية والأثرية لمنطقة الغرب. كما أن البحث عن سبل تعزيز التنمية المحلية ساهم في توظيف الموروث الثقافي والتاريخي من أجل محاولة خلق قطب تنموي يرتكز على جعل هذه المواقع أساس مبدرات التنمية الجهوية.

وبقي على"الغرباوي" أن يعي بأهمية هذا الموروث سواء أكان طبيعيا أو تاريخية، أكان في القرى أو في الحواضر لأنه هو المعني الأول به. لذى ستعمل هذه السلسلة من المقالات إلى تديم مجموعة من بطائق عن أهم المواقع التاريخية والمخلفات الأثرية والشخصيات الغرباوية من أجل التعريف بها وكذا دعوة المسؤولين والراغبين في الاستثمار إلى تعزيز الاهتمام بهذه الثروة التي لا تزالا بكرا بمنطقة الغرب، إذ يكفي الإشارة إلى أن منطقة الغرب تحتضن أكثر المواقع الأثرية بالمغرب. ويبقى على الجامعيين والمسؤولين بلورة مشاريع تنموية تروم إحداث مقاولات مدرة للدخل تسعف في خلق فرص الشغل وكذا الحفاظ على الموروث التاريخي الذي تزخر به منطقة الغرب.

المحور الأول : منطقة الغرب، المُعطيات الجغرافية والبشرية

تنفرد منطقة الغرب، أو "الأزغار" بموقع جغرافي فريد على الواجهة الأطلسية. وهي تستفيد بما تجود عليها به كل من جبال الأطلس المتوسط والريف الغربي، مما يجعلها منطقة جذب واستقطاب واستقرار. كان لهذه الخصوصيات الجغرافية أن أثارت الانتباه إليها منذ الفترة القديمة حيث تحدثت عنها مختلف الرحلات الجغرافية، الغربية منها والشرقية، والتي وصلت إلى الشواطئ الغربية للمحيط الأطلسي. ومما زاد من أهميتها كونها منطقة جريان نهر "سبوبوس العظيم" الذي يعتبر، بحق، الشريان الرئيسي لهذه المنطقة. كان لهذه الخصوصيات الجغرافية أن أصبحت المنطقة مُنتجع القبائل المتنقلة إليها خلال فصل الصيف لما توفره من أمكانية الرعي.

1 - منطقة الغرب : الخصوصيات الجغرافية والمؤهلات الطبيعية

تتوفر جهة الغرب الشراردة بني احسن على موقع استراتيجي مهم حيث يرتبط ترابها بالمدن المحورية الكبرى للمملكة، وتشكل بذلك حلقة وصل قوية بالنسبة لمحورين أساسيين : أولهما محور طنجة-أكادير مرورا بالرباط والدار البيضاء، وثانيهما محور الرباط-وجدة مرورا بمكناس وفاس. أما عاصمتها القنيطرة، فتوجد قريبة جدا من الأقطاب الحضرية المهمة في المملكة حيث لا تبعد كثيرا عن العاصمة الإدارية الرباط، وعن العاصمة الاقتصادية الدار البيضاء، وعن القطب العلمي والسياحي فاس-مكناس.

و"الغرب" هي تسمية جغرافية تدل على القسم الغربي من الواجهة الأطلسية لبلاد المغرب الأقصى. تنحصر المنطقة بين تلال مقدمة الريف وسفوح الأطلس المتوسط شرقا ومنطقة لكسوس شمالا وجهة زعير جنوبا والمحيط الأطلسي غربا. عرفت في التاريخ ب"أزغار" كما وصفها الحسن الوزان في بداية القرن السادس عشر، الذي جعله : "*يمتد على طول ثمانين ميلا وفي عرض ستين ميلا، ويخترقه نهر سبو في وسطه*". و" أزغار " تعني الأرض المنبسطة المتشبعة بالمياه في قدم الجبال . وهي كلمة أمازيغية صنهاجية مصمودية ،كثيرة الاستعمال عند أنصاف الرحل من سكان الجبال، خاصة جبال الأطلس المتوسط، لأنهم كانوا ينزلون إلى الأزغار في فصل الشتاء.

تمتد منطقة الغرب من تلال مقدمة الريف شمالا وتلال للازهرة في الشمال الغربي إلى هضبة المعمورة في الجنوب، وتحدها غربا أشرطة كثيبية، أما شرقا فتحدها تجاعيد مقدمة الريف. وتتكون المنطقة من وحدات طبغرافية متنوعة يمكن التمييز فيها بين الهضاب مثل المعمورة ثم تلال مقدمة الريف وأخيرا الوحدة السهلية الأطلنتية. تصل ارتفاعات التلال إلى 810 م بجبل سلفات، وتتراوح بين 100 م و 500 م في باقي الوحدات. وتتراوح ارتفاعاتها الهضاب ما بين 80 م. و 100 م.، وهي تتدرج على التوالي بين هضبة المعمورة ودار بالعامري ثم الهضبة الواقعة شمال للازهرة. أما بالنسبة للوحدة السهلية المتميزة فتتراوح الارتفاعات فيها ما بين 98 م.، قرب المرجة الزرقاء و 74 م.، قرب مصب واد سبو. تبقى أخيرا الوحدة السهلية المنخفضة حيث الارتفاعات فيها لا تتعدى 3 م. وقد تنزل إلى 4 م. قرب مصب واد سبو. ينتج عن تنوع هذه الوحدات الطبوغرافية تكوين ضايات ومرجات في المستويات السفلى مثل ضاية سيدي بوعزة والمرجة الزرقاء، ومرجة بلمنصور.

تتكون بنية هذه الوحدات الطبوغرافية من تكوينات وصخور متباينة، تتشكل من التلال والهضاب ثم المجالات السهلية . وتنتشر على طول واد سبو تكوينات الدهس الناتجة عن المواد المنقولة خلال فترة الفيضانات، وكلما ابتعدنا عن المجرى إلا وظهرت أتربة الترس. أما المناطق الساحلية فأتربتها ضعيفة التطور تغلب عليها التكوينات الرملية.

2 – المجالات الرطبة وواد سبوبوس : الشريان الرئيسي لمنطقة الغرب

تتميز منطقة الغرب بمناخ رطب متوسطي مع تأثيرات محيطية واضحة. فمتوسط درجات الحرارة يتراوح بين 11° و 27°. لكن يبقى المدى الحراري جد مرتفع في المناطق الداخلية كسيدي سليمان وسيدي قاسم وعلى طول وادي سبو حيث تسجل درجات الحرارة القصوى خلال فصل الصيف والتي قد تتجاوز أحيانا 45°. أما درجات الحرارة الدنيا فتنزل إلى أقل من صفر درجة في المناطق الجنوبية الشرقية من المنطقة.

وتعتبر التساقطات من العناصر المناخية المحددة للحياة الاجتماعية للسكان ولعمليات الإنتاج. فالغرب يستقبل كميات من الأمطار تتراوح بين 400 و 600 ملم. وتعرف هذه الأمطار توزيعا غير منتظم سواء على المستوى السنوي أو الفصلي. فمعظم الأمطار تسجل عادة بين نهاية فصل الخريف وبداية فصل الشتاء ويمكن لمس هذا التناقض الحاصل في الكميات المطرية وفي درجات الحرارة بالتدرج في الغطاءات النباتية والعناصر البيومناخية الأخرى بمُختلف مناطق الغرب.

تتوفر الجهة على ثروة مائية غنية حيث تجاوزت المياه السطحية 4.8 مليار متر مكعب، والمياه الجوفية 960 مليون متر مكعب. كما يتوفر ترابها على وديان وأنهار كبيرة وروافد وقنوات أرضية طبيعية لصرف المياه. إلى جانب المياه السطحية، تتوفر الجهة على فرشة مائية جوفية من أغنى الفرشات في البلاد (فرشة مائية مدللة) حيث تتجاوز مساحتها بالنسبة لفرشة المعمورة 390 كلم مربع وعمقها 30 متر وفرشة الغرب 4000 كلم مربع.

ينطلق واد سبو من الاطلس المتوسط ويصب بالمهدية على الواجهة الأطلسية على طول 614 كلم . تصل كمية تدفق مياهه إلى137 م/ث، ومساحة مائه المسطحة تبلغ 40000 كلم2. وبذلك، فهو من أكبر أنهار شمال إفريقيا وأدومها جريانا. لا نتوفر على مرجعية تاريخية لأصل تسمية نهر "سبو" الشريان الرئيسي لمنطقة الغرب. وتُرجع بعض الاجتهادات أن التسمية هي من أصل أمازيغي. وكانت أول إشارة إلى هذا النهر في المصادر التاريخية القديمة التي تتحدث عن "*سبوبوس*" و"*سبوبا*". وتذكره المصادر التاريخية العربية باسم "*سبو*" دون الإحالة عن أصول التسمية. تقدم بعض الدراسات الأونوماستية تفسيرا جغرافيا لهذه التسمية مفادها أن سبو لفظ مُشتق من "*أساسبو*" التي تعني الأداة التي تخترق الحواجز. في غياب أي سند تاريخي لا يسعنا إلا أن نقبل بهذا التفسير الذي يصف النهر الذي ينبع من الأطلس المتوسط ويتغذى بروافد من جبال الريف الغربية قبل أن يقترن بواد بهت في "المكْرن".

خريطة الموارد المائية بحوض سبو

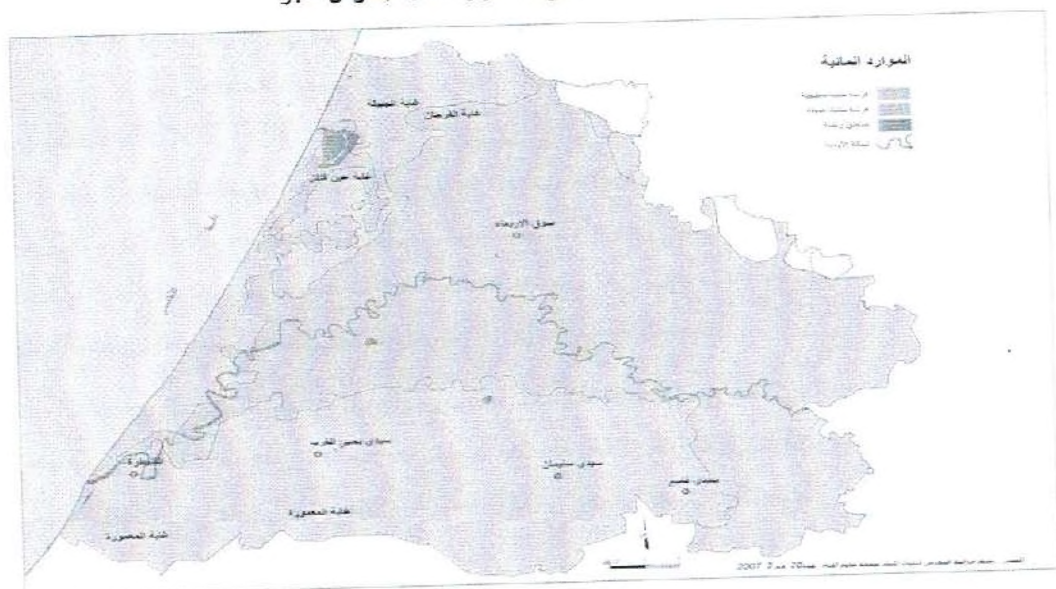

ينبع واد سبو من جهة الاطلس الكبير من بني مكيلد حيث يتكون "واد كيكو" الذى تغذيه العديد من الشعاب والضايات. يعبر"واد كيكو" أيت يوسي ثم أيت سرغ روشن وتصبح تسميته "واد مدز" الذي تغذيه، هو الآخر، مجموعة من الوديان منها واد معاصر، واد المرس ومجموعة من الشعاب. وبعد وصوله الى بني وارين (المتزل) يصبح اسمه "نهر سبو" حيث يتغذى، هو الآخرمن مجموعة من الشعاب والضايات من بينها ضاية مسكر وضاية عوة. ولما يصل الى منطقة الحياينة يرتفع صبيبه خصوصا بعد إلتقائه بواد إناون. وكلما اتجه واد سبو نحو السافلة ارتفعت الشعاب بقرية با محمد بمنطقة شراكة قبل أن يلتقي بواد ورغة. وعند وصوله إلى شرارده، يتغذى من واد مكس بمنطقة زرهون ومن واد اسريا بمنطقة مولاي ادريس. ويستمر وادي سبو بشكل ملتو إلى أن يصل الى منطقة بني حسن حيث يلتقي بأحد أهم الروافد الكبرى لسبو وهو بهت.

تناولت مختلف المصادر التاريخية واد سبو منذ الفترة القديمة إلى الفترة المعاصرة. وتتحدث المصادر التاريخية القديمة أنه على مقربة من مستوطنة بناصا ومعسكر تاموسيدا في منطقة الغرب يجري نهر سبوبوس الذي يقول عنه بلينيوس الشيخ إنه "*نهر رائع وصالح للملاحة*". وخلال القرن الخامس ق. م. قام الأميرال القرطاجي حانون بتأسيس مدينة تيمياتيريا عند مدخل الوادي، قبل التغلغل عبر نهر سبو نحو الأراضي الداخلية إلى أن وصل جزيرة كرني. ويرى الباحث في التاريخ القديم أن نهر سبو شكل في بداية العهد الإمبراطوري حدود التوسع الروماني في موريطانيا الغربية، حيث كان بمثابة "الليمس" الطبيعي للمناطق الخاضعة للسيطرة الروماني.

وخلال الفترة الوسيطية قدم حسن الوزان وصفا لنهر سبو ضمن باقي الأنهار الكبرى بالمغرب إلى جانب أم الربيع و ورغة و ملوية و درعة. وجعل منه مسربا مائيا للوصول إلى فاس بعد اختراقه للسهول الداخلية.وخلال الفترة الحديثة تناول إبن ابي زرع الفاسي في كتابه "*الانيس المطرب القرطاس في اخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس*" واد سبو حيث وطن العديد من المدن على ضفافه وذكر مجموعة من الوقائع والأحداث التاريخية التي عرفتها المناطق المجاورة لهذا الواد .كما تطرق له صاحب كتاب تاريخ الضعيف وكذا كتاب " كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق " للشريف الادريسي . وازداد ذكر واد سبو في المصادر التاريخية خلال الفترة المعاصر إلى جانب ذكر واد بوفكران وواد إيناون وواد بهت وواد ورغة، خصوصا مع تزايد الرحلات الاستكشافية الفرنسية التي كانت تروم إلى التعرف على المغرب العميق. وقد كان واد سبو من بين أهم اهتمامات هذه الرحلات التي اتخذت منه طريقا مائيا للوصول إلى فاس والتعرف عن القبائل المغربية الداخلية.

يتبين أن واد سبو له فضل كبير على منطقة الغرب، فإلى جانب تغذيتها بالرواسب وريها بالمياه، فقد شكل مسربا مائيا نحو الأراضي الداخلية ومكنها من الارتباط بالمحيط الأطلسي عبر مصب واسع أسعف ربط المناطق الداخلية بالسواحل الأطلسية.

3 - أهمية المجال الغابوي بمنطقة الغرب

يتوفر تراب الجهة على غطاء غابوي شاسع حيث تبلغ مساحة الغابة الطبيعية أزيد من 45974 هكتار حيث تمثل هذه المساحة نسبة 10 بالمائة من المساحة الغابوية الطبيعية في مجموع التراب الوطني، أما الغابة المزروعة فتتجاوز مساحتها 95898 هكتارا. وتعتبر هذه الغابات بشقيها الطبيعي والمزروع ثروة جهوية كبيرة لا زال مستوى استغلالها في الأنشطة الاقتصادية والأنشطة المدرة للدخل ضعيفا (تربية المواشي، السياحة، تربية النحل، جني وتصنيع "الترفاس" والبلوط والفلين،...). كما تم تسجيل تعرض هذه الثروة الغابوية للانقراض والاجتثاث بسبب عدم وجود استراتيجية حكومية مندمجة لعقلنة استغلالها.

تتميز غابة المعمورة بتنوع غطائها النباتي وهي تتكون من أربعة تشكيلات نباتية رئيسية وهي :

1- شجر البلوط الفليني على رأس قائمة الأصناف النباتية الطبيعية ليحتل بذلك مساحة تقدر ب 66.900 هكتارا تتوزع بين إقليم القنيطرة الممثلة في غابة المعمورة ب 38.000 هكتارا، وهضاب الحادش وعرباوة في الشمال بحكم ملاءمة غابة الفلين والظروف التضاريسية والطبيعية الأخرى.

2 – الغابة السفلى من العرعار الأحمر التي تنتشر فوق الكثبان الحديثة والقديمة

3 – أشجار البطم والزيتون البري التي تنتشر في المرتفعات وبالقرب من مجاري الأودية

4 - أشجار الصنوبريات التي تغطي مساحة تصل إلى 5800 هكتارا تتوزع بين إقليمي القنيطرة وسيدي قاسم ثم نجد المركب النباتي المرتبط بعمليات التشجير والمتكون من غابات الأوكاليبتوس والصنوبريات والأكاسيا والذي يهم بالخصوص الهوامش الشمالية لغابة المعمورة بين سيدي يحيى الغرب وسيدي سليمان وفوق هضاب عرباوة والحادش في الشمال وبعض البقع المتناثرة بينما في المنطقة الساحلية والمرجات تنتشر النباتات الملحية والرطاما عند الجزء الممتد بين الغرب الأعلى وسوق الأربعاء الغرب إلى جرف الملحة.

وعموما فإن غابة المعمورة تتكون من مراعي ذات جودة عالية بسبب تنوع نباتاتها واتساع مراعيها وتنوع اشجارها بين العالية والقصيرة والفسيحة والمتداخلة، مما يجعلها مرتعا لتربية الماشية. بيد أن هذا الغطاء النباتي يعرف تدهورا في النمو والتطور والاستمرارية نتيجة العامل السوسيو-اقتصادي المرتبط بالضغط الديمغرافي عن طريق الاجتثاث قصد توسيع المجالات الزراعية أو قصد تسويق الخشب والاستعمالات المنزلية، أو عن طريق الرعي الجائر مما يحد من إعادة النمو الطبيعي للأصناف النباتية.

تتوفر المنطقة على مؤهلات طبيعية متنوعة ومهمة، سواء على مستوى التربة التي تشكل أرضية لانتشار مجموعة من الزراعات، أو على المستوى المائي يلخصها تعدد المحاور المائية والسدود التي تسمح بحقينة مائية تساهم بشكل فعال في توسيع القطاعات المسقية داخل السهل. هذه العوامل المتداخلة فيما بينها أهلت منطقة الغرب غلاحيا لتتطور إلى جانبه صناعات غذائية مهمة، مما جعلها تحتل المكانة اللائقة بها ضمن الاقتصاد الوطني العام.

شجر البلوط بغابة المعمورة

المحور الثاني : الغرب، منطقة جذب واستقرار بشري منذ الفترة القديمة.

استقبلت منطقة الغرب موجات بشرية منذ العصور القديمة، وشكلت المؤهلات التي تزخر بها حافزاً شجع على الاستقرار. وتفيد دراسة القبائل أن المنطقة كانت عبارة عن مُنتجع لتحركات القبائل المورية، خلال فصل الصيف. وعمدت السلطات الرومانية إلى زرع مستوطنات بها ثم فرض سياسة الاستقرار على القبائل النازحة من الأراضي الداخلية. كما احتضنت أكبر موجات قبلية حيث قدمت إليها قبائل مورية من المناطق الجنوبية والشرقية ووطنتها السلطات الرومانية بالقرب من مستوطنة بابا ومستوطنة بناصا وبجوار المعسكر تاموسيدا.

1 - الاستقرار البشري خلال الفترة القديمة

ساهمت الظروف طبيعية في توالي الاستقرار البشري بمنطقة الغرب منذ الفترة القديمة؛ إذ تؤكد الدراسات التاريخية أن المنطقة كانت موطن قبيلتي البنيوريين و الزكرنسيين اللتين استقرتا بالقرب من مستوطنة بناصا ومعسكر تموسيدا. ونظرا لرغبة الرومان في استمالة قبيلة الزكرنسيين وجعلها موالية لهم، فقد منحوا زعيمها المواطنة الرومانية مع الاحتفاظ بكامل حقوقه داخل قبيلته، وذلك حتى يؤثر عليها ويجعلها تسير في فلك الرومان. ويرى الباحث مصطفى أوعشي أنه من غير المستبعد أن يكون اسم الزيكرينسي مستمدا من الكلمة الأمازيغية "ازگر" التي تعني البقر أو البقريات بصورة عامة. فإذا كان اسم القبيلة بالفعل موافقا لهذا الافتراض، فهذا يعني أننا أمام قبيلة مورية كانت تعتمد في نمط عيشها على تربية الأبقار. كما أنه من المرجح أيضا أن يكون اسم القبيلة مشتقا من "أزغار" الذي يعني مجال الانتجاع في السهل خلال فصل الشتاء.

2 - نزوح القبائل العربية إلى منطقة الغرب

ويعود استقبال منطقة الغرب للقبائل العربية إلى أواخر القرن 6 هـ / 12 م والذي استمر إلى أواخر القرن 13 هـ / 19 م وبداية القرن 14 هـ / 20 م . وبالتالي، فإن استقرارهم النهائي في المنطقة يعود إلى العصر الحديث حيث بدأت تظهر مكونات خريطة توزيع القبائل الغرباوية على النحو التالي: *"يفصل نهر الدردار بين الخلط وطليق في الشمال، و سفيان وبني مالك في الجنوب. كما أن نفس النهر يفصل بين سفيان وبني مالك في الشمال، والشرادة وبني احسن في الجنوب. ويعتبر ضريح محمد گدار حدا فاصلا بين الشرادة شرقا وبني احسن غربا. ورغم أن هذه القبائل اتخذت لها أماكن استقرار ومجالات تنقل محددة جغرافيا، إلا أننا نلاحظ بعض التداخل فيما بينها ؛ بحيث نجد دواوير خلطية في بلاد سفيان وبني مالك، بحيث إن منطقة الغرب تتكون من وحدات، وكل وحدة تضم بعض العناصر التي تنتمي لهذه القبيلة أو تلك "*.

كشف الأستاذ المصطفى البوعناني في دراسته حول قبائل الغرب أن ساكنة المنطقة عرفت توافدا عبر مراحل تاريخية، وأن فكرة "خلاء منطقة الغرب" من الساكنة، تستدعي إعادة النظر. فهو يذهب إلى طرح تزايد ساكنة منطقة الغرب منذ أواخر القرن 6هـ/12م إلى أواخر القرن 13هـ/19م. و كانت قبيلة رياح، وهي أولى القبائل العربية التي استقرت بالمنطقة، وكان عدد أفرادها أكثر من عدد أية قبيلة عربية أخرى بما فيها قبيلة الخلط، التي كان يقدر عدد أفرادها، آنذاك، بحوالي 200.000 نسمة. وحافظت المنطقة على نفس عدد السكان تقريبا، طيلة القرن 7هـ/13م إلى بداية القرن 8هـ/14م، بالرغم من الحملة العسكرية التي قام بها السلطان المريني أبو ثابت سنة 707هـ/1308م ضد قبيلة رياح . لم يدم هذا الانخفاض طويلا، لأن نفس الخليفة أعطى أوامره بالبدء في تهجير خلط تامسنا إلى منطقة الغرب قصد إعادة تعميره بعد إبادته لقبيلة رياح.

3 - توافد القبائل الجنوبية والجبلية نحو منطقة الغرب

عرفت المنطقة، تراجعا في عدد السكان ابتداء من مطلع القرن 9ه/15م بسبب الحروب التي قام بها أبو سعيد عثمان المريني (800ه/1398م – 823ه/1420م) ضد منافسه في الحكم. وقد ترك الوزان ومارمول أوصافا معبرة على مدى التخريب والإئتلاف الذي حصل للقرى والأراضي الزراعية بسبب تلك الحروب، زيادة على ما تلاها من مجاعات وأمراض. وانطلاقا من منتصف القرن 9ه/15م إلى منتصف القرن 10ه/16م سيحدث تغيير جذري في عملية تعمير منطقة الغرب بإدخال عناصر أخرى بأعداد مهمة جدا من الخلط وسفيان وبني مالك على الخصوص، ثم كنانة والعمارنة وأولاد حسين، التي كانت تجند ما لا يقل عن 139.000 من القوات فرسانا ومشاة. وإذا أضفنا إليهم، في بداية القرن 12ه/18م، حوالي 70.000 من قوات عبيد البخاري في مشرع الرملة، ويصل بذلك العدد إلى ما لا يقل عن 209.000 محارب، و ما لا يقل عن 10.000 فارس من بني احسن، وفي منتصف القرن 12ه/18م، سيصل مجموع المحاربين إلى ما لا يقل عن 222.000.

وحسب المصطفى البوعناني، فإذا اعتبرنا أن عدد سكان المنطقة، خلال القرن 10ه/16م، ظل ثابتا على الأقل، وانضاف إليه في مطلع القرن 12ه/18م، عدد 222.000 محارب، يكون عدد سكان منطقة الغرب قد تطور خلال القرون الثلاثة 10-11-12ه/16-17-18م على الشكل التالي : من 522.250 خلال القن 16م إلى 780.750 خلال القرن 17 م ليصل إلى 820.550 خلال القرن 18 م. لقد أصبحت المنطقة، انطلاقا من العهد السعدي، خزانا بشريا يمد الجهات القريبة منها بأعداد مهمة من السكان، كالخلط ومعهم سفيان وبنو مالك حيث اتسع مجال انتشارهم من ساحل المحيط الأطلسي إلى أن دخل الكثير منهم فاس مثل عبيد البخاري وأطل البعض منهم على مدينة فاس.

وعرفت المنطقة تنامي استقرار وتحرك القبائل مع نهاية القرن 18م وبداية القرن 19 م.، ويتبين هذا الأمر من خلال بروز مراكز عسكرية اتخذها المخزن كمحطات استراتيجية آمنة للتنقل بين أهم مدن وعواصم المملكة؛ إذ تم إحداث مجموعة من المحلات والنزالات العسكرية شكلت النواة الأساسية لبروز مراكز حضرية حديثة بمنطقة الغرب، ستلعب دور المستقطب للتجمعات البشرية، وخصوصا على مشارف واد سبو، وبالقرب من السواحل الأطلسية.

إن ما يثير الانتباه، في التتبع التاريخي لتعمير منطقة الغرب هو التأكيد على أنها منطقة جذب لا منطقة الطرد والنزوح. وتأتي المعطيات التاريخية لتأكد على أنه على طول الفترات التاريخية استقبلت المنطقة أفواجا من القبائل النازحة والمهاجرة والمتنقلة، مما جعلها تتغذى بشريا وحضاريا.

نزوح القبائل العربية إلى منطقة الغرب خلال الفترة الوسيطية

المحور الثالث : المواقع الأثرية القديمة بمنطقة الغرب

1- المراكز الحضرية

تقع مدينة بناصا على الضفة اليسرى لنهر سبو، وهي تبعد بحوالي 17 كلم عن مدينة مشرع بلقصيري وبحوالي 30 كلم عن المحيط الأطلسي. تعتبر إحدى المستوطنات الرومانية التي أقامها الإمبراطور الروماني أوكتافيوس في موريطانيا الغربية. وقد ارتبط إسم هذه المدينة بضريح سيدي علي بوجنون.

لا نملك لحد الآن أي تأويل مقنع حول مدلول كلمة بناصا والمعنى الذي يفيده الاسم، إلا أن أقدمية الموقع السابق عن الوجود الروماني تجعلنا نفترض أن يكون للاسم جذورا محلية. فقد ورد إسمها في العديد من المصادر القديمة ولو في إشارات محدودة، فقد حددها بلينيوس الشيخ على بعد خمس وسبعين ميلا من ليكسوس ووطنها بطليموس بين °7-°30 و °34-°20. كما وترد ذكرها في الدليل الأنطونيني، وعند الجغرافي رافينا بعد فريجيدي. إلا أنه سيختفي ذكرها في مصادر العصر الوسيط و مصادر الفترات اللاحقة، و كأن وجود هذه الحاضرة قد اقتصر في الزمان على فترة العصر القديم.

يميز الدارسون في تاريخ المدينة بين الفترة المورية والفترة الرومانية. فقد كان الاعتقاد السائد قبل منتصف القرن العشرين أن موقع بناصا لم يعرف استقرارا سابقا عن الوجود الروماني، غير أن عددا من الاستبارات أكدت عكس هذا الطرح. وتبقى لحد الآن معلوماتنا عن الفترة المورية منحصرة في نتائج الاستبارات التي عرفها الموقع خلال نهاية الخمسينات من القرن العشرين، ما بين سنة 1955 و 1956. كما أن نتائج البعثة المغربية الفرنسية قدمت معطيات تفيد أن تاريخ الاستقرار بالموقع من الممكن أن يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد. وتتخذ مستوطنة بناصا خلال المرحلة الرومانية وضعيتها الحالية أي شكلا طوليا من الشمال إلى الجنوب، حيث أن أغلب المباني متركزة على الواجهة الغربية للكاردو الرئيسي. ويظهر أن تخطيطها، بالنظر إلى شكله الحالي، مثله مثل غيره من المدن، إذ تنتظم بنايات بناصا في وحدات سكنية تتخذ أشكالا مستطيلة، محاطة في جوانبها الأربعة بشوارع متوازية ومتقاطعة.

تحتوي المدينة على المباني العمومية، والتي تتكون من الساحة العمومية (الفوروم) التي تعتبر قلبها النابض. وهي عبارة عن ساحة مستطيلة (38 م و 34 م كقاعدة وارتفاع 38 م) ومن خصوصياتها أنها أقل اتساعا في جهتها الشمالية الشرقية. ويستنتج من نظام الأبواب أنها كانت تقفل ليلا، وتشترك في هذه الخاصية مع ساحة وليلي. وإلى جانب الساحة العمومية تحتوي بناصا على الكورية *Curie* التي تتخذ شكلا مستطيلا وتعتبر مع البازيليك ملحقين يكملان الساحة العمومية (الفوروم)، وهي عبارة عن قاعة مخصصة لاجتماعات المجلس البلدي. يمتد البازيليك على الواجهة الشمالية للفوروم، ويتخذ شكلا مستطيلا مساحته 941,06 م^2. تنفتح على شارع بواسطة فتحة واسعة، أرضيتها من بلاطات سميكة من الرخام الأبيض، أما الجدران فمن أحجار كبيرة تحيط بها ركائز. وتحتوي المدينة على معبد،لأن كل مدينة كانت توضع تحت حماية الآلهة لذا كان من اللازم توفير مقر لها، والذي يشترط فيه أن يوضع على نقطة مرتفعة، نظرا لكون الاعتقاد السائد هو أن حماية الإله لا تتم بطريقة محكمة إلا على المجال الذي يمكن رؤيته.

وتتميز بناصا بحماماتها التي تعود إلى فترات ضاربة في القدم. كشفت الحفريات عن أربع حمامات عمومية تتركز كلها في الجهة الغربية، إضافة إلى حمامات خصوصية بجانب الفوروم وأخرى في الحي الجنوبي. تتميز هذه الحمامات بتواضع مساحاتها، مقارنة مع حمامات بعض المدن الأخرى في موريطانية الطنجية وخاصة مدينة وليلي. إلى جانب المباني العمومية خلف موقع بناصا المباني الخصوصية ومنها : منازل ذات باحات معمدة وأخرى تتخذ أشكالا تختلف حسب المساحة.

2 - المراكز العسكرية

يوجد موقع تموسيدا الأثري شمال غرب مدينة القنيطرة على طريق طنجة بالقرب من ضريح سيدي علي بن أحمد. ورد ذكرها في المصادر القديمة، حيث وطنها بطليموس بين إحداثيات 7°-34-34°- 15 أي شمال شرق سلا. وجعلها الدليل الأنطونيني على الطريق التي تربط بين أدميركوريوس وتينكي. أما عند الجغرافي رافينا فقد ورد اسم المدينة ضمن المدن الواردة في الدليل الأنطونيني، حيث نجد تموسيدا بعد سلا وقبل بناصا. وقد طابق شارل تيسو سنة 1874 بين بقايا سيدي علي بن أحمد مع موقع تموسيدا .

انتقلت المدينة من تجمع سكني صغير في البداية لتصبح مدينة بمواصفات حقيقية مع القرن الميلادي الأول. وتؤكد نتائج الحفريات الأخيرة أن تاريخ الاستقرار يمكن أن يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد. وتوالت الحفريات بالموقع حيث أزالت التراب عن أربعة أبواب المعسكر والأربعة عشر برجا في السور. وبينت الاستبارات التي أنجزت في الموقع منذ بداية الستينات من القرن العشرين على أن الموقع قد عرف استقرارا سابقا عن وصول الرومان إلى الموقع شأن العديد من المواقع في هذا الإقليم الغربي.

حددت الحفريات فترتين أساسيتين في تاريخ المدينة : فقد كشفت الاستبارات عن وجود آثار بنايات تعود للفترة المورية أقيمت فوقها بنايات الفترة الرومانية، مما يوحي بأن تموسيدا وعلى غرار مدن موريطانية الطنجية، كانت بها بنايات قبل الفترة الرومانية. يتضح ذلك من خلال الاتجاه المخالف لهذه الآثار وتلك التي أقيمت فوقها و التي تعود للفترة الرومانية. إضافة إلى ذلك، كشفت الحفريات عن عدد من اللقى الفخارية من أواني وأمفورات، تعود للفترة نفسها.

أبانت الحفريات بتومسيدا عن وجود منازل متواضعة ومحترفات ومحلات من المحتمل أنها كانت في أحياء خاصة. كما تمت إزالة التراب عن بنايات أخرى منها معمل الكاروم، وعن منطقة صناعية تتوفر على عدد من الأفران. وكباقي المواقع القديمة فقد تم العثور في تموسيدا على بنايات ذات وظيفة دينية حيث تم العثور على أربعة معابد وهي : المعبد المربع، المعبد المحدب، المعبد ذي الثلاث مقصورات، المعبد الكبير ذو البوديوم. وأزالت الحفريات الأثرية التراب عن بقايا على طول الوادي، يمثلها جزء من السور والحمامات، عرفت بحمامات الوادي.

تعتبر تموسيدا من أكبر معسكرات موريطانية الطنجية، ويوجد المعسكر على الواجهة الغربية للمدينة. يتخذ شكلا مستطيلا مساحته 2.25 هكتار، يتوفر على أربعة أبواب، وأربعة عشر حصنا. أرخ لهذه المنشأة من خلال قطعة نقد بالقرن الميلادي الثالث. إلى جانب المعسكر خلفت تموسيدا البريطوار وهو جزء من النظام الدفاعي داخل المعسكر، يوجد عند ملتقى المحورين الرئيسيين في المعسكر. يحيط بالمعسكر السور الدفاعي طوله حوالي 1600 م. ويتوفر على عدد من الأبراج أنصاف دائرية وحصن دائري في الجهة شمالية الغربية، ذي ثلاثة أبواب يؤطر كل واحد منها برجين. أرخ لهذا السور بالقرن الميلادي الثاني. إن توفر المدينة خلال القرن الميلادي الثاني على معسكر، يدل على الحرص على توفير الأمن لساكنتها وحماية مجالها الجغرافي إلى أن تم الجلاء الروماني ما بين 274 و 280 م.

3 -موقع جيلدا أو ريغة : Rhira : عاصمة اللملكة المورية ؟

تقع ريغة وسط سهل الغرب على بعد ثمانية كيلومترات شمال غرب سيدي سليمان، في إحدى منعطفات وادي بهت، على الضفة الغربية لهذا الوادي، غير بعيد من برج مراقبة سيدي جابر. يمتد الموقع على حوالي اثنى عشر هكتار. ورد ذكر المدينة في العديد من المصادر باسم جيلدا، فقد أشار ألكسندر بوليستور إلى "جيلدا مدينة ليبية"، وأكد بومبنيوس ميلا على أنها توجد داخل الأراضي. وردت باسم سيلدا Silda عند بطليموس الذي وطنها بين إحداثيات 7°50' و 33° 40'. ويضعها الدليل الأنطونيني بين أكواداسيكي وفوبيسكيانا. وبذلك فحسب معطيات الجغرافي بطليموس والدليل الأنطونيني، فإن جيلدا توجد على وادي بهت غير بعيدة عن سيدي سليمان.

كشف القائد هالبواش Halbwachs سنة 1919 عن آثار الموقع. واعتبر شاتلان أن مركز ريغة لا يمكن أن يكون إلا مركزا عسكريا، وذلك بالنظر إلى مساحته الصغيرة. ودافع روبيفا عن فرضية أن جيلدا هي ريغة، وأكد على أنه يجب البحث عن جيلدا في وادي بهت غير بعيدة عن سيدي سليمان. وأرخت نتائج الاستبار الذي أنجزه أوزينا، أن ريغة تعود للقرن الثاني قبل الميلاد على الأقل.

تم العثور بموقع ريغة على قطع من الخزف الكمباني والمصبوغ وقطعة نقدية تعود للملك مسينيسا إضافة إلى آثار جدار تزكي فكرة الاستقرار الموري في الموقع. وتم الكشف في الموقع نفسه ،عن بقايا سور من الرضم وباب تظهر من آثاره بعض الكتل، إضافة إلى بناية يصعب تحديد وظيفتها وحمامات احتوت بعض غرفها على لوحة فسيفسائية. وفي الجهة الجنوبية الشرقية، بناية من عدة غرف تنفتح على باحة. و بهذا فنحن أمام منطقتين سكنيتين و حمامات. بالنسبة للمرحلة الإسلامية فقد عرفت إعادة استغلال البنايات التي تعود للفترة الرومانية من طرف ساكنة الموقع.

تكشف المواقع الأثرية القديمة بمنطقة الغرب عن أهمية المنطقة ودورها التاريخي، سواء خلال عهد الممالك المورية أو خلال الفترة الرومانية. غير أن هذا التعمير سيتراجع مع تعاقب الفترات التاريخية اللاحقة.

خريطة رقم 3 : خريطة الموقع الأثري جيلدا أو ريغة : Rhira

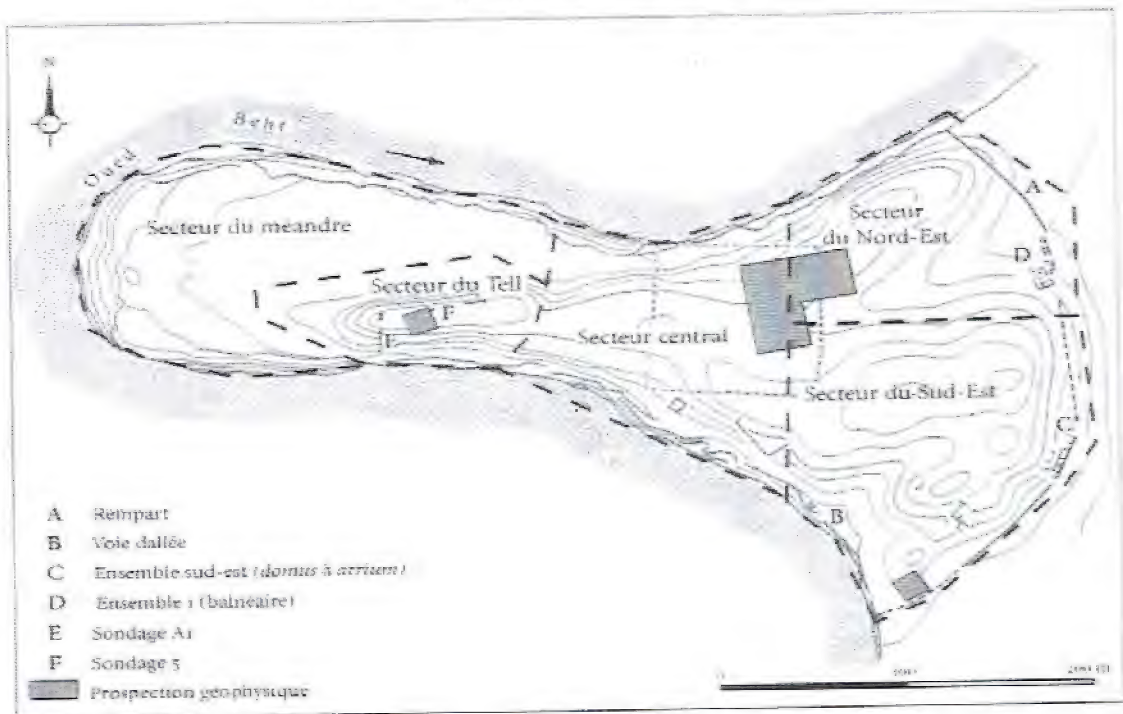

المحور الرابع : منطقة الغرب خلال الفترة الوسيطية

مع نهاية الفترة القديمة، دخلت منطقة الغرب في فترة العصور المُظلمة التي سبقت قيام الإمارة الإدريسية، مؤسسة حكم الأسر التي تعاقبت على حكم المغرب خلال الفترة الوسيطية. وما يثير الانتباه هو استمرار استغلال المواقع التي كانت آهلة بالسكان خلال الفترة القديمة، مما يؤكد توالي توافد واستقرار القبائل الأمازيغية والعربية بالمنطقة. وتكشف الدراسات الأثرية للفترة الوسيطية عن مواقع تاريخية تذكرها المصادر التاريخية، منها ما هو حضري مثل موقع البصرة، ومنها ما هو عسكري على غرار موقع حد كورت. واستقبلت منطقة الغرب موجة من الزهاد والصلحاء منذ الفترة الوسيطية طبعوا ببركاتهم مواقع مختلفة من المنطقة كما هو الحال بالنسبة لموقع مولاي بوسلهام.

1- مدينة البصرة : عاصمة الأدارسة في منطقة الغرب

يوجد الموقع الاثري لمدينة البصرة حاليا على بعد حوالي 22 كلم من مدينة سوق أربعاء الغرب وحوالي 33 كلم من مدينة وزان، و يمتد علي مساحة 30 هكتار، تعبره الطريق الرئيسية المعبدة الرابطة بين سوق الاربعاء ومدينة وزان. تم تأسيس مدينة البصرة أو الحمراء الإدريسية ما بين 180هـ/796م (وهي فترة حكم الرشيد) و 197هـ/803 م (وهي فترة حكم إدريس الثاني). وعرفت هذه المدينة تطورا كبيرا حيث انتقلت بسرعة كبيرة من مجرد قرية إلى مكان إقامة الأمراء الأدارسة. وفي سنة 958 م، خلال رحلة لأحد قادة الخليفة المعتز جوهر، تم تأسيس دولة إدريسية صغيرة تابعة لحكم الفاطميين تمتد من صنهاجة بالريف الأوسط إلى منطقة غمارة بالريف الغربي وعاصمتها مدينة البصرة.

ورد ذكر مدينة البصرة في المصادر التاريخية الوسيطية التي تحدثت عن أهميتها وكبرها قياسا بمدن القرن التاسع الميلادي، بحيث تبدو من خلال أساسات السور المحيط بها، أن مساحتها تجاوزت الثلاثين هكتارا، وأن هذا السور كان يتوفر على عشرة أبواب، كما تبين أنه كان بطول كيلومترين ونصف، وكان سمكه أزيد من مترين، وله أبراج شبه دائرية. وقد سجل المؤرخ الجغرافي أبو القاسم بن حوقل في كتابه صورة الأرض حولها خلال القرن التاسع الميلادي أنها : "*مدينة مقتصدة، عليها سور ليس بالمنيع، ولها مياه عن خارجها من عيون عليها بساتين يسيرة من شرقيها، ولها غلات كثيرة من القطن المحمول إلى إفريقية وغيرها، ومن غلاتهم القمح والشعير والقطان يوسعهم من ذلك وافر. وهي خصبة كثيرة الخير حسنة الأسواق والعمارة طيبة الهواء صحيحة التربة. وفيها قوم لهم خطر وميل إلى السلامة والعلم، و لهم محاسن في خلقهم قد عمت نساءهم ورجالهم. والغالب عليهم حسن القدود والشطاط واعتدال الخلق وجمال الأطراف، ويشملهم الستر والسلامة والمعروف*".

وكتب عنها أبو عبيد البكري المتوفى سنة 487 هجرية في كتابه المسالك والممالك قائلا : "*مدينة البصرة مدينة كبيرة واسعة وهي أوسع تلك النواحي مرعا وأكثرها ضرعا، ولكثرة ألبانها تعرف ببصرة الذبان، وتعرف أيضا ببصرة الكتان لأن أهلها كانوا يتبايعون في بدء أمرها في جميع تجاراتهم بالكتان، وتعرف أيضا بالحمراء، لأنها حمراء التربة، وسورها مبنى بالحجارة والطوب، وهي بين شرفين، ولها عشرة أبواب، وبجامعها سبع بلاطات، وبها حمامان، و مقبرتها الكبرى في شرقيها في جبل، ومقبرتها الغربية تعرف بمقبرة قضاعة، وماء المدينة زعاق، وشرب أهلها من بير عذبة على باب المدينة تعرف ببير ابن ذلفاء، وخارجها في جنانها عيون كثيرة، وآبار عذبة، ونساء البصرة مخصوصة بالجمال الفايق والحسن الرايق، ليس بأرض المغرب أجمل منهن* ".

تجمع كل المصادر التاريخية على أن مدينة البصرة كانت في عهد الدولة الإدريسية، من نصيب الأمير يحيى بن إدريس الثاني، وذلك بناء على إشارة كنزة زوجة إدريس الأول إلى حفيدها محمد بن إدريس الثاني بتقسيم الدولة على إخوته على النحو الذي أورده الناصري في الجزء الأول من كتاب الاستقصا حيث جاء فيه : "*واختص يحيى بأصيلا والعرائش والبصرة وبلاد ورغة*". تميزت مدينة البصرة بوظيفتين رئيسيتين هما التجارة والسياسة، فهي في الأساس كانت نقطة عبور تقع على الطريق

التجاري الشهير (فاس - سبتة)، ثم أنيط بها، فيما بعد، دور سياسي، حيث تحولت إلى عاصمة للأدارسة في عهدهم الثاني بعد خروجهم من فاس ومطاردة موسى بن أبي العافية لفلولهم، وشهدت سقوط دولة الأدارسة سنة 375هـ.

وإذا كان جزء كبير من مدينة البصرة ما يزال مطمورا تحت تراب الموقع فهناك بقايا منها تم الكشف عنها بفضل الحفريات الأثرية التي انطلقت منذ سنة 1980. أبانت هذه الأبحاث أن المدينة كانت محاطة بسور على طول 2,5 كلم و عرضه 2,20م . يحيط مساحة تصل إلى 30 هكتار. وتطل على مجالها الجغرافي ب 10 أبواب. كما أبانت الحفريات داخل السور عن وجود مصنع خاص بالمعادن وأدوات حجرية، مما يبين أهميتها الأثرية.

شكلت البصرة نموذج المدينة بالمغرب خلال الفترة الوسيطية حيث كانت تتوفر على قصر الإمارة والمسجد الجامع والسوق الداخلية والسوق الخارجية (الأسبوعية) والأحياء السكنية والشوارع والأزقة والسور والأبراج والأبواب وتوفر المياه، والمقبرة .كما يزخر محيطها الفلاحي بعدد من البساتين والحقول والقرى. واضطلعت مدينة البصرة بالإضافة إلى هذا بوظائف سياسية والعسكرية واقتصادية واجتماعية، شكلت الخطوط العريضة لمعالم المدينة المغربية في الشمال الغربي المغربي خلال الفترة الوسيطية .

2- حد كورت : الحد الفصل بين الغرب والمناطق الجبلية

لا تزال حد كورت ترمز إلى المنطقة الهامشية والحدودية بمنطقة الغرب، حتى أن الانتساب إلى هذه المنطقة يحمل دلالة "الآخر" الذي ينزح من الحدود. وتكشف تركيبة اسم "حد كورت" وليس "أحد كورت" كما هو شائع عن الوظيفة الأساسية التي كان يضطلع بها الموقع. فـ"حد" تعني الحدود، وليس أحد، اليوم الأخير من الأسبوع. فالموقع هو عبارة عن موقع أثري ذو طبيعية عسكرية بالقرب من جبل "كورت".تتميز "حد كورت" بكونها منطقة الفصل بين الجبل والسهل، مناخها بارد وممطر شتاء، وحار صيفا. وتشير المصادر التاريخية الوسيطية إلى هذه المنطقة ب"أزغار" أي مجال الفصل والتلاقي بين جبال الريف والسهول الغربية. أدت هذه الخصوصية الجغرافية إلى اهتمام سلطات الحماية الفرنسية بهذه المنطقة. وكشفت نتائج المسح الأثري أن الموضع كان مركز استقرار حامية عسكرية رومانية، كانت تؤمن التنقل داخل المثلث النافع لموريطانيا الطنجية.

وخلال الفترة الوسيطية، ورد ذكر مدينة "كرت" عند ابن حوقل في كتابه "صورة الأرض" قائلا : "*وكرت أيضا مدينة لطيفة في سفح جبل منيعة أيضا بغير صور، ولها مياه كثيرة وأجنة واسعة ومزارع عظيمة وغلاتهم من القمح والشعير والقطن كثيرة، واهلها تجار والغالب عليهم البربر، وجمع أصل هذا الصقيع المذكور أقليم طنجة آل إدريس*". وجاء عنها عند الإدريسي :أن "*مدينة كرت، مدينة كبيرة حصينة كثيرة الخير على نظر كبير، يعمرها قبائل من البربر يقال لهم بياتة، وهي اليوم قرية عامرة*".

دخل الموقع في سبات مع الفترة الحديثة بفعل انتقال الاهتمام إلى الواجهة البحرية، وإن ظل موقع حد كورت يقوم بدور نقطة الالتقاء بين نمطين من العيش والتفكير، نمط جبلي وتفكير غرباوي جعل من ساكنة حد كورت تمتهن مهنة "الزطاطة" لتأمين تنقل البضائع والبشر بين المناطق الداخلية والشمالية أو الغربية الأطلسية. وقد التصقت صورة نمطية ب "حد كورت" بالغرب مفادها أنها كانت منطقة "سيبا" خارجة عن سلطة المخزن المغربي. ومع استقرار القوات الفرنسية بالمغرب انتبهت إلى أهمية الموقع العسكري، فأعادت توظيف الموقع عبر إنزال حامية عسكرية مخزنية بها كانت تؤمن التواصل بين الريف الذي ظل خارج النفوذ الفرنسي وكذا المناطق الداخلية.

إذا كان موقع "حد كوت" لم يخلف أثارا بارزة، فإن نتائج المسح الأركيولوجية تؤكد وجود شواهد من بنايات وبقايا خزفية تعود إلى الفترة القديمة. وحمل الموقع في المصادر الوسيطية صفة "المدينة" و"القرية العامرة"، مما يؤكد على أهميته. ولا يزال، إلى اليوم، موقع "حد كورت" من أهم المراكز القروية بمنطقة الغرب.

3 - مولاي بوسلهام وتمركز ظاهرة الأولياء والصلحاء بمنطقة الغرب

يعود الفضل إلى الباحث جورج سالمون، خلال بداية القرن العشرين. في التعريف بشخصية مولاي بوسلهام من خلال عمله "بعض الأساطير حول مولاي بوسلهام Quelques légendes relatives a Moulay Bou Selham نشرت هذه الدراسة في الجزء الثالث من مجلة الأرشيف المغربي، سنة 1905. باللغة الفرنسية. اهتم سالمون بمولاي بوسلهام باعتباره أكبر ولي في منطقة الغرب، وعند القبائل العربية المنتشرة على وادي سَبُو ولوكوس. فبعدما عرّف بأصله الحسني الشريف. انتقل مباشرة إلى حكاية بعض الأساطير التي نسجت حول ولادته. وطفولته. ودراسته في القيروان، ومهنته في الخياطة التي كان ينفق من عائداتها على الفقراء، ثم انتقاله الى أصيلة بالمغرب، وبعدها استقر للعبادة في مدينة العرائش. ومنها استقراره بالقرب من المرجة الزرقاء

والرواية الوحيدة لسيرة مولاي بوسلهام، منقولة عن مخطوط مناقب مجهول المؤلف. والذي عثر عليه جورج سالمون بالقصر الكبير أوائل القرن العشرين ونقله إلى الفرنسية. وجاء فيها أنه "عندما وصل بوسلهام إلى ساحل أصيلة قادما إليه من مصر عن طريق تونس، ذهب إلى رجال الشمس في دار الشمس [موقع ليكسوس] حيث وجد 45 قبرا لزهاد من المشرق والمغرب. كانوا جميعهم سبقوه إلى البحث عن الباب الصغير والصومعة المذكورة. عندما دخل الشيخ أبو سعيد بو سلهام إليها وجد بها الأولياء الزهاد على قيد الحياة. بينهم عميان فقدوا بصرهم من كثرة تعبدهم. وآخرون لم يكونوا يستطيعون الوقوف. وآخرون غيرهم التصقت جلودهم بعظامهم. حياهم بوسلهام وسألهم عن القبور فأخبروه باسم دفين كل قبر وترحموا عليهم. ثم ودعهم الشيخ بوسلهام وواصل سيره فمر من مدينة العرائش التي عاد يتحرى فيها حول الباب الصغير. ورأى شيخا من بعيد لاحظ حين اقترب منه أن عينيه زرقاوان وكان يشبه في ملامحه الأنبياء. فقد كان نحيفا عذب الأنفاس ووجهه متألق. وعليه ثياب مرقعة. حياه بوسلهام، فرد عليه الشيخ الأزرق ذو العينين الزرقاوين السلام قائلا: "مرحبا بك يا من جار عليه الأمير". ذهب الشيخان بوسلهام والشيخ الأزرق للتجول عند شاطئ البحر. وبينما هما مستغرقان في التأمل شاهدا رجلا يلقي شبكته في البحر، فقال بوسلهام للشيخ عبد الرحمان الأزرق : "ألا تعرف من هذا الرجل الذي يصيد؟ لو أني علمت بشفاء عبد الجليل (الطيار) لقلت إنه هو بنفسه". وكان الرجل فعلا هو سيدي عبد الجليل الطيار. سأله مولاي بو سلهام: "ماذا تفعل هنا ؟ رد عليه الطيار: "أصيد السمك بالصنارة" قال له بوسلهام : "أدخل يدك في الماء وأمسك بالأسماك بدون صنارة".

ظن سيدي عبد الجليل الطيار أن مولاي بوسلهام يسخر منه، لكنه مع ذلك أدخل يده في ماء البحر وأخرجها مملوءة بالأسماك دونما حاجة إلى صنارة. ففي كل شعرة من شعر يده كانت قد علقت سمكة. فأشار بوسلهام إلى البحر بأن يتقدم في تلك اللحظة فأطاعه. وانسحب الرجال الثلاثة إلى الباب والصومعة يتبعهم البحر الذي ولج من الباب الصغير (الذي يسمى اليوم المرجة الزرقاء) وواصل تسربه حتى وصل نقطة العبور المعروفة باسم مشرع الحضر. وعند تلك اللحظة بالذات خاطب الشيخ الأزرق مولاي بوسلهام قائلا له :" يا أبا سعيد قل للبحر بأن ينسحب حتى لا يغرق الناس". فأمر الشيخ البحر بأن يتراجع ففعل ولم يترك خلفه سوى قليل من الماء بين تلتين. فبارك أبو سعيد ماء تلك البحيرة قائلا: "رب اجعل من هذه الأسماك علاجا لكل الأمراض، وباركها اللهم بحيث تلازم البركة والعلاج هذا الماء إلى يوم القيامة"

بعدما تراجع البحر دخل الشيخ بوسلهام برفقة الشيخين عبد الرحمن الأزرق وعبد الجليل الطيار إلى الصومعة المدفون فيها يوسف بن أرسطو، وانصرفوا فيها إلى عبادة الخالق لفترة من الوقت. وفي يوم من الأيام بينما كانوا يقرؤون القرآن، أخذ الشيخ عبد الرحمن يبكي وينتحب إلى أن سقط جثة هامدة. فحزن رفيقاه. وبينما هما يبحثان عن كفن لدفنه دخلت عليهما مجموعة من الأشخاص المجهولين يحملون كفنا. وما أن نظر إليهم الشيخ بوسلهام وهو في شك من أمرهم حتى أجهش بالبكاء ثم سقط هو الآخر جثة هامدة. فقام سيدي عبد الجليل الذي بقي وحيدا مع الرجال المجهولين بغسل جثماني رفيقيه ودفنهما. وعندما حفروا للشيخين قبرين وشرعوا في دفنهما، ارتفعت في الجو ريح قوية وأظلمت الدنيا بغيوم سوداء حجبت عن الأنظار الرؤية وجعلتهم يرتعدون. وعندما انجلى الظلام وجد الرجال المجهولون ثلاثة قبور (مفتوحة) وثلاثة جثث. فقاموا بدفنها من دون أن يعرفوا من كان صاحب الجثة الثالثة. وانصرف الرجال الغرباء بينما بقي الشيخ عبد الجليل وحيدا في الصومعة ثمانية أيام أخرى يبكي ليل نهار. و(عندما أدركه الموت) دفن هو الآخر على ضفة البحيرة.

لا تزال الروايات الشعبية حتى اليوم، تزعم أن الأسماك التي تُصطاد من البحيرة (المرجة الزرقاء) مباركة وتشفي كل العلل، وتلك كرامة تحسب على بركة مولاي بوسلهام.

المحور الخامس : المواقع الأثرية والتاريخية خلال الفترة الحديثة بمنطقة الغرب

لم تبقى منطقة الغرب بعيدة عن تطور الأوضاع السياسية والعسكرية التي شهدتها الفترة الحديثة مع انطلاق الاكتشافات الجغرافية. وبرزت أهميتها مع تنامي عمليات القرصنة والجهاد عبر المحيط الأطلسي، كما أنها كانت تجاور مناطق استقرار القوات الاستعمارية الاسبانية بالمغرب مثل العرائش. ووفر واد سبو إمكانية ولوج القوات الأجنبية إلى منطقة الغرب عبر مصب الوادي الذي يحتضن "المعمورة" كقلعة جهادية في مواجهة القراصنة.

وبسبب العراك العسكري الداخلي والخارجي، وجد المخزن المغربي بمنطقة الغرب أرضية لبناء مشروع عسكري خاص يتمثل في إحداث "كتائب" من جيش العبيد خاصة بالسلطان. ويعتبر "مشرع الرملة" من أهم المواقع الأثرية والتاريخية المغربية التي احتضنت أكبر عمليات تجنيد، خاصة القائمة على توظيف ملك اليمين المخزني لحماية السلطة المركزية. ومن أجل تعزيز هذا الدور العسكري احتضنت منطقة الغرب قلعتين عسكريتين، الأولى إسماعيلية والثانية عزيزية، كان لهما دورا أساسيا في دعم شوكة المخزن بالمنطقة، وتم استغلالهما كنقط مرور من قبل القوى الفرنسية في طريقها إلى فاس. لا تزال هذه المواقع الأثرية تثير فضول الطالب والوافد على القنيطرة إلى يومنا هذا.

1 - موقع المعمورة وقصبة المهدية

أثارت الخاصية الجغرافية لمصب واد سبو في المحيط الأطلسي الانتباه منذ الفترة القديمة. فقد استقبل المصب رحلة حانون القرطاجي منذ القرن الخامس ق. م. وتم تأسيس، بالقرب منه، مستوطنة تيمياتريون حسب ما يفهم من إشارات المصادر التاريخية القديمة. ورد اسم المعمورة في عهد الموحدين خلال القرن الثاني عشر الميلادي، إذ قام السلطان عبد المومن ببناء 120 مركبا بحريا حربيا في مرفأ المعمورة. وفي نفس المكان أقام الموحدون مشروعهم البحري. إذ كانت "مرسى المعمورة" عبارة عن دار لبناء السفن، وقاعدة بحرية في العصر الموحدي.

تحول الثقل الاقتصادي إلى المحيط الأطلسي، مع بداية الاستكشافات الجغرافية الكبرى ونشاط عمليات الجهاد البحري في مصب أبي رقراق، فأصبح مرسى المعمورة نقطة انطلاق الحملات الجهادية الموجهة ضد الإسبان والبرتغاليين. ففي 24 يونيو 1515 وصلت القوى البرتغالية بواسطة أسطول بحري قدم من برشلونة ليرسو بمصب واد سبو في محاولة لبناء قلعة على مشارف المصب، غير أن السلطان محمد السعدي تمكن من إحباط المشروع وطرد البرتغاليين. ازدادت لهفة الأوربيين الذين وجدوا في الموقع منفذا نحو الأراضي الداخلية للمغرب. لقد انتقلت المعمورة من يد السلطة المركزية إلى يد القراصنة الذين حولوها إلى ميناء للتربص بالسفن الأوربية العابرة للشواطئ الأطلسية. وهكذا احتضنت أشهر القراصنة خلال أواسط القرن السادس عشر ومنهم الإنجليزي هاينورينغ الذي حول ميناء المعمورة إلى قلعة عسكرية بحرية فرضت سيطرتها على الطريق التجاري البحري، كما اضطلعت بدور الحماية للسفن المارة بالواجهة الأطلسية. عرفت هذه القلعة، في التاريخ البحري "بجمهورية قراصنة المعمورة".

كان لتزايد إشعاع ودور القرصنة في مرسى المعمورة أن أثار حفيظة الإسبان الذين جهزوا أسطولا بقيادة لويس فخاردو Luis Fajardo الذي تمكن من السيطرة على المرسى وقلعة المعمورة سنة 1614. أطلق الأسبان على المعمورة اسم "*سان ميكيل د أولترامار*". وأمام كثافة عمليات الجهاد ضد المحتلين الإسبان، اضطروا بعد أن اشتد عليهم الحصار إلى التخلي عن المعمورة، وتسليم مفاتيحها سنة 1681 إلى السلطان المولى إسماعيل (1082 - 1139هـ /1672 - 1727) فدخلها وسماها المهدية. وكان من أبرز القواد المخزنيين الذين استقروا بالمهدية القائد علي الريفي الذي شيد بقصبة المهدية بابا كبيرا وقصرا وسجنا وخزانات وحمامات ومسجد، بالإضافة إلى مجموعة بنايات وظيفية داخل القصبة. وفي سنة 1795 قام السلطان مولاي سليمان (1792–

1822) بإغلاق مرسى المهدية في وجه التجارة البحرية، فانتقل نشاطها الاقتصادي إلى مرسى سلا، لتصبح المهدية عبارة عن مرفأ نهري لزوارق الصيد.

لا تزال قصبة المهدية تشهد على الحلقات التاريخية لمصب واد سبو، بالنظر لموقعه الجغرافي الذي أثار انتباه الحضارات الشرقية كما الحال بالنسبة لرحلة حانون القرطاجي، أو الغربية كما الحال بالنسبة للأطماع الأيبيرية. كما أن المخزن المغربي عبر التاريخ استفاد من هذا الموقع الاستراتيجي حيث لا تزال أثار قصبة المهدية تشهد على الدور التاريخي للمنطقة.

2 - موقع مشرع الرملة : حاضنة جيش البخاري

يعتبر موقع مشرع الرملة من أهم المشاريع العسكرية التي وظفها المخزن المغربي لتقوية آليات بسط نفوذه خلال العصر الحديث. يقع موقع مشرع الرملة شمال سيدي يحيى الغرب، إذ ما تزال بناياته ظاهرة، ويمتد على مسافة 5 كلم جنوب المدينة، وهي عبارة عن أسوار وجدران لخراب ما تبقى من مشرع الرملة العسكري .

تنطبق أثار هذا الموقع مع ما تقدمه المصادر التاريخية التي أولت له اهتماما نظرا لدوره في تثبيت دعائم حكم السلطان المولى اسماعيل. لقد انتبه هذا الأخير إلى كثرة الأسرى، من جهة، ومن جهة أخرى التنافس على اقتناء الرقيق، فأصدر قراره بمنع الرعية من تمليك "عبيد المخزن". فجعل العبيد تابعين للدولة. وأسس منهم جيش نظامي عرف ب"عبيد البخاري" الذي أنيطت به الخدمة العسكرية وتعزيز الأمن وضمان تأمين طاعة القبائل وجمع الضرائب منها. تطور موضوع اسقاط ملكية الناس على عبيدهم لتشتريهم الدولة ولتجعلهم سندا لها في حروبها، ليصل إلى حد جعل الدولة تلزم جميع السود ولو كانوا أحرارا بالاندماج في الجيش.

صورة رقم 1 : باقيا أثرية إسماعيلية بمنطقة سيدي يحيى قد تكون لموقع مشرع الرملة

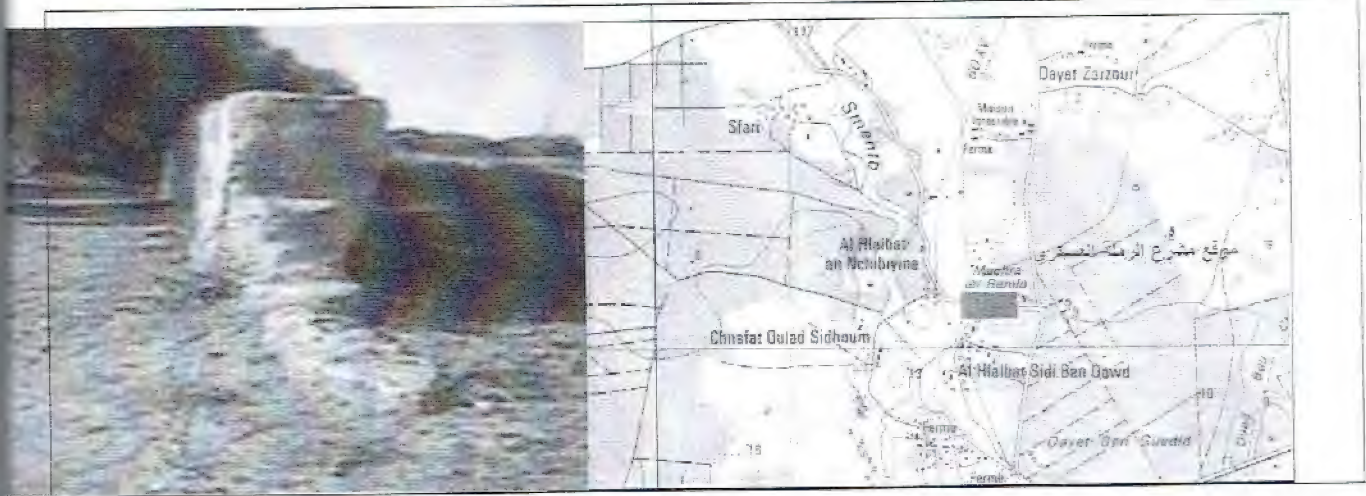

قام كاتب السلطان "عليلش" بجمع عبيد القبائل وحملهم إلى حضرة السلطان بمكناس، الذي وزعهم على ثكنات عسكرية، وتعرف ب"المحلة". تم فيها تدريبهم وتسليحهم، وولى عليهم قوادهم، وأعاد توزيعهم في أماكن نزولهم وإقامتهم، وعين عليهم قاضيا. كان أولهم الفقيه محمد بن العياشي المكناسي، وسماه قاضي القضاة للفصل فيما يقع بين الجنود من منازعات وخصومات. وقد كبُر أمر جيش عبيد البخاري حتى استغنى به المولى إسماعيل عما سواه، وأصبح سنده في حروبه وفتوحه، فاعتمد عليه في دولته وسياسته، وعين منه الولاة والقواد. يذكر المؤرخ الناصري أن عدد الجنود من العبيد وصل، في بدايته، إلى أربعة عشر ألفا، احتضن مشرع الرملة عشرة آلاف وأربعة آلاف كانوا بآدخسان. وعند موت السلطان المولى إسماعيل كان

عدد البخاريين مائة وخمسون ألفا. وقد بلغ عدد العبيد المسجلين في محلة مشرع الرملة في آخر أيام المولى إسماعيل حسب الزياني 90 ألفا.

3 - القصبات السلطانية، من خدمة المخزن إلى تسهيل مأمورية انسياب الجيش الفرنسي

عرفت منطقة الغرب إنشاء قصبتين مخزنيتين وهما :القصبة الإسماعيلية والقصبة العزيزية. وتقع القصبة الإسماعيلية أو قصر مولاي اسماعيل على صخرة فوق ربوة تطل على مصب واد سبو. وهي معلمة تاريخية ضاربة جذورها في التاريخ، وموروث أثري يسلط الضوء على جزء من تاريخ الصراع العسكري عبر موقع قلعة حربية إلى قصر بهندسة رفيعة.

تقول المصادر التاريخية، إنه مباشرة بعد تعيين علي الريفي حاكما على القصبة، أمر السلطان مولى إسماعيل بتوسيع عمرانها، وهكذا تم تشييد دار المخزن وقصر القائد وعدة مرافق عمومية، كالمسجد والمدرسة والحمامات والباب الجديد المطل على غابة المعمورة، كما تم بناء الاصطبلات ومخازن المؤونة، ووقع الاهتمام بالهندسة الدفاعية للقصبة، حيث تم إنشاء مواقع محصنة للمدافع في اتجاه البحر. كما أقيمت حامية عسكرية بالمهدية لحماية القوافل التجارية المارة بالمنطقة. إلا أنه انطلاقا من سنة 1795م، تم إغلاق ميناء المهدية بعد انتهاج السلطان المولاي سليمان لسياسة الانغلاق والاحتراز إزاء القوى الأوروبية.

كان نزول القوات الفرنسية بقصبة القنيطرة في 29 أبريل سنة 1911 استجابة لخطة استعجالية فرضتها صعوبة المسيرة العسكرية الفرنسية التي انطلقت من الدار البيضاء في اتجاه فاس. تولى الجنرال «موانيي»، قيادة هذه الحملة التي كانت تهدف الوصول إلى العاصمة فاس، باعتبار أن المهدية تعد أقرب ميناء إليها. تحولت القصبة المخزنية الاسماعيلية إلى قاعدة عسكرية بعد ترحيل ساكنتها، فتم خلق مختلف المصالح الإدارية والعسكرية التي يحتاجها الغزو العسكري. وانطلاقا من سنة 1912م، سيتم إنشاء ميناء القنيطرة، فغادرت القوات الاستعمارية القصبة، لتتحول إلى أطلال، بعدما تعرضت مبانيها لأضرار بليغة. وفي نونبر 1942، اكتشفت قوات الحلفاء الأهمية الاستراتيجية للمنطقة، فعرفت نزول القوات الأمريكية في إطار عملية «طورش»، التي كانت تهدف إلى بناء قوات الحلفاء انطلاقا من المغرب، وقد تم تدمير الكثير من المعالم التاريخية للقصبة بسبب المعارك الطاحنة التي دارت أمامها بين القوات الفرنسية الموالية للألمان «حكومة فيشي» والقوات الأمريكية. ولا تزال آثارها شاهدة على هذه المرحلة حيث قبر الجندي المجهول الذي يوجد عند مدخل الطريق المؤدي إلى القصبة.

وعلى بعد 12 كلم، في اتجاه القنيطرة قام السلطان مولاي عبد العزيز ببناء قصبة على الضفة اليسرى لنهر سبو، حملت في الوثائق المخزنية أسماء مختلفة هي : قصبة قنيطرة علي أوعدي، والقصبة الجديدة، تمييزا لها عن قصبة المهدية المجاورة، كما نعتت بالمعمرة والعامرة والسعيدة، وحددت وظيفتها في تأمين المسافرين والتجار. وتعتبر هذه القصبة آخر التحصينات العلوية في مغرب ما قبل الحماية. تأثر بناؤها بالظرفية العامة التي كانت تجتازها البلاد، إذ استغرق زهاء ست سنوات من سنة 1312 هـ/ 1895م إلى سنة 1318 هـ/ 1900م بسبب الصعوبات المالية والأمنية والتباطؤ في الإنجاز. حلت بالقصبة، بعد إتمام بنائها في حدود سنة 1318 هـ /1900 م، حامية عسكرية مكونة من مائتي جندي، وعين السلطان مولاي عبد العزيز عبد السلام التكاني قائدا عليها، ونزل بجوارها في مكان النزالة. قائد الرحا الأغا المعطي بن المدني السرغيني المكلف بحراسة القوافل عبر الطريق المخزني من سلا إلى مدن الشمال والشرق الذي تجاوز على ما يبدو سلطة قائد القصبة سنة 1326 هـ/ 1908 م، إلى أن تم تعيينه من طرف السلطان مولاي عبد الحفيظ قائدا على القصبة. وبذلك تركز الوجود العسكري داخل القصبة وبسط القائد المعطي السرغيني نفوذه على الدواوير المجاورة للقنطيرة، وأصبح مركز القنيطرة مستقلا عن الرباط من حيث التموين العسكري. ووصلت الطلائع الأولى للقوات الفرنسية من فرق الكولونيل برولار إلى قصبة القنيطرة في 29 أبريل 1911. وفي 14 مايو 1911، تعرض ما تبقى في القصبة من الجيوش الفرنسية إلى هجوم مباغت من قبائل زمور والغرب وتمكنت من الحصول على الذخيرة والمئونة التي احتفظت بها القوات الفرنسية في القلعة الخلفية بقصبة القنيطرة. وغادرت الجيوش الفرنسية قصبة القنيطرة يوم 13 مايو في اتجاه فاس عبر لآلة يطو قبل أن تصل إلى مشارف فاس في 25 مايو 1911.

المحور السادس : المواضع التاريخية الكولونيالية خلال الفترة المعاصرة بمنطقة الغرب

1- الضيعات الفلاحية : تراث عمراني قروي بمنطقة الغرب

تزخر بادية منطقة الغرب، الواقعة على الواجهة الأطلسية بالمغرب، ببنايات ذات طابع حضري إلى جانب البنايات القروية المحلية. ويطلق على هذه البنايات الحضرية اسم "الفيلا"، وتعرف عند الساكنة المحلية ب"الفيرما". وهي تشكل محور الضيعة الفلاحية الكولونيالية التي كانت أساس استقرار المستوطنين والمعمرين بالمنطقة خلال المرحلة الاستعمارية. تمتاز هذه البنايات بخصوصياتها الهندسية وطابعها الحضاري حتى أصبحت معالم تاريخية وتراثا عمرانيا يحمل في طياته إرثا حضاريا يجد جذوره في الفترة القديمة ويمتد عبر تاريخ التعمير إلى أن تجسد، مرة أخرى، خلال فترة الحماية الفرنسية بمنطقة الغرب.

وقد أبانت الدراسات التاريخية والأثرية لهذه البنايات، عن انتشارها الواسع بمنطقة الغرب منذ الفترة القديمة قبل أن تختفي خلال الفترة الوسيطية والحديثة، إلى حدود تطبيق نظام الحماية الفرنسية على المغرب مع مطلع القرن العشرين، حيث ظهر هذا الصنف من البنايات الحضرية في المجال الغرباوي، من جديد، وبشكل مثير للانتباه. وأثارت هذه البنايات اهتمام الدراسات العمرانية خلال مرحلة ما بعد الاستقلال، إذ تم جرد أزيد من 365 بناية حضرية ذات طابع أوربي بمنطقة الغرب. وأظهرت جانبا من الدراسات التي تناولت هذه البنايات عن تنوع أشكالها الهندسية، وغنى محتوياتها، وتباين مكوناتها، حتى أصبحت في الآونة الأخيرة معالم "تاريخية أوربية" في مجال قروي مغربي.

أ - موقع مزرعة بريبو La ferme Prio :

أثار الموقع الأثري لمزرعة بريبو بجهة الغرب مجموعة من الفرضيات حول طبيعته، فهناك من اعتبره موقع لمدينة "جيلدة" ومن اعتبره موقعا عسكريا، خاصة وأنه يتوفر على خصائص دفاعية واستراتيجية مهمة في المنطقة. غير أن الدراسات الأركيولوجيا الحديثة أثبتت أن موقع مزرعة بريبو هو لاستغلالية فلاحية. كما تضاربت الآراء حول تاريخ هذا الموقع، وإذا كان "أوزينا" يُرجع هذا الموقع إلى القرن الثاني ق. م.، فإن "شاتلان" يؤرخ له بالقرن الثالث الميلادي اعتمادا على النقود التي عثر عليها في الموقع. يقع موقع مزرعة بريبو على أحد المنعرجات لواد بهت وتبلغ مساحته الإجمالية حوالي 2000 م، كما خلف الموقع نقيشتان ورجل خيل من البرونز وبعض التماثيل المنزلية ثم مجموعة نقود تعود أغلبيتها إلى القرن الثالث الميلادي تؤرخ لفترة الإمبراطور "كورديانوس" و"فيليبوس"، بالإضافة إلى بقايا مواد الفخار المتنوع التي تشكل أدوات المنزل. ولا تزال، حاليا، في المزرعة بقايا أحجار تشهد على بنايات قديمة، إلى جانب ثلاث مطاحن للحبوب ومعصرة للزيتون.

ب - موقع مزرعة بيارنياي La ferme Biarnay :

يمتد موقع مزرعة بيارنياي La ferme Biarnay على مساحة تتراوح ما بين 25 و 30 هكتار ويشرف على الأراضي الخصبة لبلاد المكرة قرب الخنيشات على واد ورغة. يشغل الموقع الأثري مساحة تزيد عن الهكتار وقد خلف أسوارا لمباني رومانية ومواد خزفية مختومة ذات البرنيق البرتقالي، إلى جانب بعض النقود الرومانية للإمبراطور "دوميسيانوس" و"كومودبوس". وهذا ما يجعل من هذا الموقع أحد نماذج الاستغلالية الفلاحية الرومانية في منطقة الغرب خاصة وأنه يوجد في موقع إستراتيجي يشرف على منخفض الخنيشات الواقع بين وادي ورغة ونهر سبو على بعد 8 كلم من ملتقى النهرين. ومن المرجح أن هذا الموقع كان محصنا، مما يؤكد الدور الإستراتيجي لهذه "المؤسسات" في موريطانيا الغربية كمثيلاتها في باقي الأقاليم الرومانية. وغير بعيد من

تموسيدا في الجهة الشرقية يوجد موقع "فرعنا" إلى جانب عدد من أبراج المراقبة. ويرى "روبوفا" أن هذا الموقع قد يكون لاستغلالية فلاحية كانت محصنة.

ج - موقع باب تيسرة Bab Tisra :

عكس الموقع السابق، يعتبر باب تيسرة من المواقع القروية التي حظيت باهتمام التنقيبات الأركيولوجيا في الأراضي الداخلية لموريطانيا الغربية والتي أسفرت عن إقامة تصميم هندسي يكشف عن نمطية الاستغلاليات في هذه الجهة . ويوجد هذا الموقع قرب سيدي قاسم على فج واد الردم وقد تم اكتشافه سنة 1930 من طرف "لويس شاتلان" ونشر "لوكي" بعض نتائج الحفريات إلى جانب تصميم الموقع في الأطلس الأركيولوجي للمواقع الأثرية بجهة الغرب. يبدو أن أسوار هذا الموقع كانت من الحجارة الكبيرة غير المنحوتة وأنه كان يستعمل القرميدات المنبسطة إلى جانب الآجورات غير المشوية مما يدفع إلى الاعتقاد بأن الموقع يعود إلى فترة ما قبل السيطرة الرومانية على موريطانيا، إلى جانب هذه المواد خلف الموقع الخزف المختوم الأحمر الإسباني مما يدل على استمراره في الاشتغال إلى القرن الثالث ميلادي.

يتضح من خلال تصميم موقع باب تيسرة أن جناحه الجنوبي كان يتوفر على معصرة للزيتون، بل إن "لوكي" يشير في تقديمه لهذا الموقع أنه كان يتوفر على معصرتين. كما تضمن هذا الجناح مطحنة للحبوب إلى جانب المخازن التي تظهر على شكل بنايات طويلة الشكل. وبذلك يتضح أن هذا القسم من الاستغلالية كان مخصصا للمحترفات التحويلية وعناصرها. أما بيوت السكنى فيبدو أنها تتوزع في القسم الشمالي وإن كان من الصعب التمييز بين وظائفها.

خريطة المواقع الأثرية القروية بمنطقة الغرب

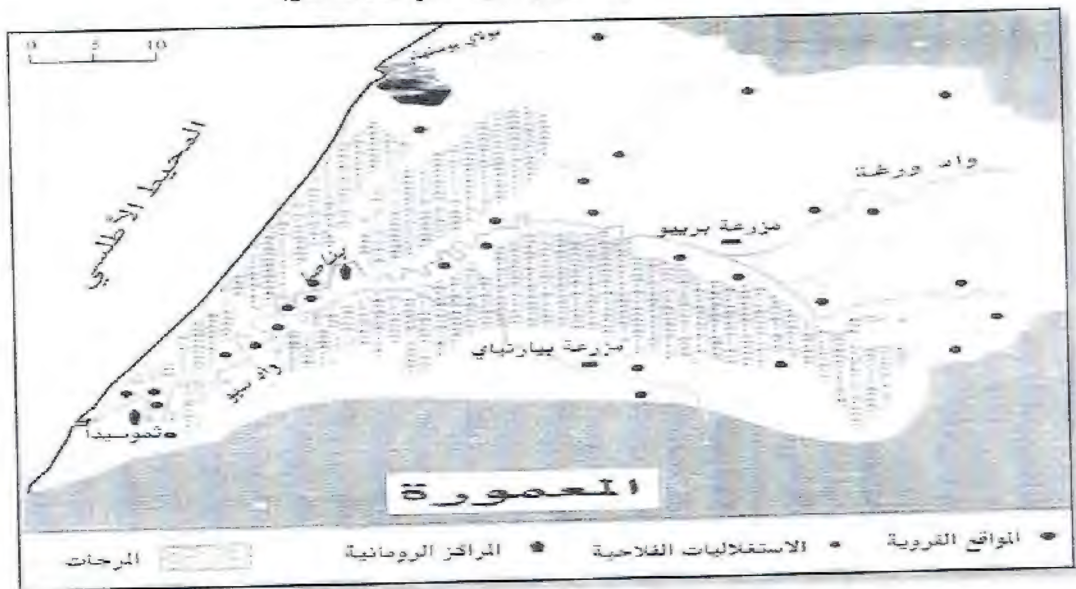

2 – إحياء"الفيلا القروية" بمنطقة الغرب مع تطبيق الحماية الفرنسية على المغرب.

مع تراجع نفوذ الرومان في موريطانيا الطنجية سنة 285 م، إلى شمال أبيدوم نوفوم (القصر الكبير) ، دخلت الضيعة الفلاحية ومعها "الفيلا" القروية مرحلة الأفول. ولم تعد المصادر التاريخية الوسيطية تذكر إلا المزارع والباساتين التي كان يمر عبرها الحجاج والرحل دون إعارة الاهتمام إلى بنايات قروية تثير انتباههم على نفس النحو الذي كانت عليه "الفيلات" القروية في الفترة الرومانية.

وتذهب الدراسات التاريخية للتراث العمراني القروي خلال الفترة الوسيطية إلى القول بأن بيوت الفلاحين بالبادية المغربية كانت "بربرية" تعتمد في بنائها على المواد الطبيعية من الطين والحجارة والخشب والقصب والتبن. وأما هندستها فتتكون في الغالب من طابق أرضي يجمع بين بيوت السكنى التي تحاذي المخازن، وفي الجوار إسطبلات البهائم. وقلما تتوفر هذه البنايات على طابق علوي يستغل للتخزين يطلق عليه "إغرم" أو "أكادير" أو الخزين، حسب اللهجات المغربية.

نموذج من بنايات "لفيلا" قروية بمنطقة الغرب

بقيت البنايات القروية المجتمعة في دواوير تؤثث مجال البادية الغرباوية إلى جانب النوالة والخيمة إلى حدود بداية القرن العشرين وتطبيق نظام الحماية الفرنسة على المغرب سنة 1912. وقد شرع الأوروبيين في الحصول على الأراضي الفلاحية بمنطقة الغرب وتمليكها مباشرة بعد انعقاد مؤتمر مدريد سنة 1880، الذي أقر تطبيق الحماية الفردية، والسماح للأوروبيين بامتلاك أراض في ضواحي المراسي المغربية بعد الحصول على إذن من المخزن المغربي. وفي سنة 1911 استحوذ المعمرون الفرنسيون على 80 ألف هكتار من الأراضي الفلاحية بالمغرب منها 30 ألف هكتار في منطقة الغرب.

كان من نتائج هذه السياسة الزراعية التشجيعية أن ارتفع عدد المستوطنين الزراعيين بمنطقة الغرب من 500 سنة 1920 إلى 1000 مستوطنا سنة 1925 ويرتفع إلى 1500 سنة 1927، ثم إلى 2067 مستوطنا سنة 1937، قبل أن يصل إلى 5000 مستوطن عام 1951– 1952، حيث شكل الفرنسيون 86% من مجموع عدد المستوطنين، في حين أن الأسبانيين كانوا يمثلون 7%، والإيطاليين 2%، وباقي الجنسيات الأوروبية الأخرى لم تتجاوز نسبة 5 %.

كان من نتائج استقرار الأوربيين والمعمرين الفرنسيين بمنطقة الغرب، أن بدأت تظهر بها بنايات بهندسة حضرية. وسرعان ما شكلت هذه البنايات نقط ضبط يتم بموجبها إرشاد المارين أو السائلين. وأصبح إسم المعمر أو لقبه يحيل على الأرض التابعة له وعلى الدواوير التي تنتشر بالقرب من إقامته. وتطور دور "الفيلا" القروية لتتخذ طابعا مؤسساتيا يتمثل في إقامة المالك مع أفراد أسرته، وبالقرب منها إقامة مسير الضيعة

ومحلات للعمال المياومين. بالإضافة إلى مرافق أخرى تأوي الحيوانات والعتاد الفلاحي. وقد تحتوي بعض "الفيلات" على مخازن وكذا محترفات للمنتوجات الفلاحية.

خريطة رقم 2 : توزيع أراضي المستوطنات والضيعات الفلاحية بمنطقة الغرب خلال فترة الحماية الفرنسية

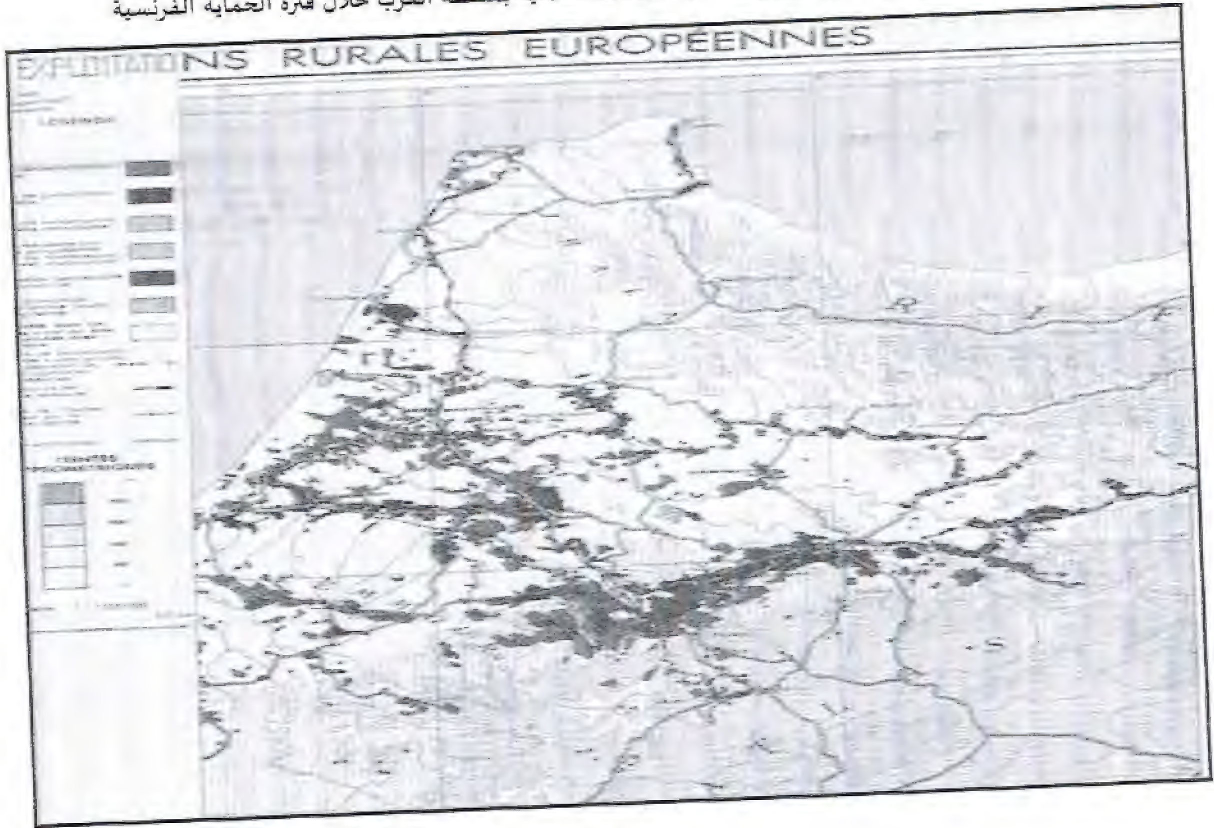

أصبحت هذه "الفيلات" معالم حضرية غربية تؤشر على تسرب الأوربيين إلى منطقة الغرب الفلاحية. كما أن السلطات الفرنسية اتخذت منها "محطات" أساسية للتغلغل والتعرف على عمق البادية المغربية، وأداة للتحكم في تحرك الساكنة القروية. وعمدت سلطات الحماية الفرنسية إلى تشجيع إقامة هذه البنايات عبر ربطها بالطرق المعبدة وإمدادها بالتيار الكهربائي، مما أهلها لتلعب دور الوسيط بين البادية وساكنتها والمدينة المجاورة لها. وحتى تضطلع بالدور المنوط بها، حرصت سلطات الحماية على إعطائها طابعا عمرانيا أوربيا مخالفا لطبيعة المنازل الحضرية التي كانت تزخر بها الحواضر المغربية. وتجلى هذا النمط الغربي في الهندسة والشكل العمراني ومكونات البناية، حتى أضحت بناية "الفيلا" تجسد تغلغل الحماية في عمق البادية المغربية.

2 - المنشآت الاقتصادية : بور اليو طي، الميناء الذي أفرغ مدينة القنيطرة

تشتهر مدينة القنيطرة بموقعها على نهر سبو وبانتشار أعشاش طائر اللقلاق بالقرب من المرسى. كما تشتهر بقربها من شاطئ المهدية عند مصب نفس النهر، وبانتشار بنايات على الطراز المعماري الأوربي، وبتوزيع شوارعها بشكل متواز يجعل أحياءها مربعة، وبانتشار معالم تاريخية تعود إلى فترة الحماية. فقد وفر مصب الواد إمكانية إقامة بوابة تربط سهل الغرب بالطريق البحري الأطلسي. وهذا ما دفع الفرنسيين إلى التفكير في إقامة أول مرسى نهري ما بين بناصا والمهدية. فشرعوا منذ 1913 في إنشاء أول ميناء نهري بالمنطقة ليكون منشأة اقتصادية لتصريف المنتوجات الفلاحية لسهلي الغرب وسايس. كما أنهم جعلوا منه النواة الأساسية لإحياء "مجد أجدادهم" في المنطقة على غرار الآثار الرومانية بالمنطقة.

كان من نتائج هذه المجهودات أن قدم ميناء القنيطرة خدمات جليلة، انطلقت من الدور العسكري الذي قام به خلال المرحلة الأولى، قبل أن يتم فتحه في وجه التجارة، ليصبح مركز التصدير والاستيراد عبر طريق المحيط الأطلسي، ويدخل في منافسة باقي موانئ المغرب سواء التي كانت في المنطقة الشمالية الخاضعة لإسبانيا أو التي كانت تابعة للحماية الفرنسية. أعلن الجنرال ليوطي خلال مؤتمر صحفي عقد في غشت 1912 بالإقامة العامة، عن اختيار القنيطرة كقاعدة عسكرية ومحطة ثانية بعد المهدية. وأعطيت الأوامر لتوجيه الآليات إلى ميناء القنيطرة لبداية الأشغال، حيث شرع في إنشاء رصيف عائم من طرف فريق الهندسة لوضع الاحتياطات من المؤونة الخفيفة. وفي غشت سنة 1912 تم بناء رصيف مجهز برافعة تصل حمولتها إلى 6 أطنان. وفي بداية شهر يناير سنة 1913 م تم فتح الميناء في وجه التجارة، فازدادت أهمية الميناء وامتيازاته.

تتبعت مصالح الهندسة العسكرية الفرنسية تطور مشروع الميناء ما بين 1914 و 1916. وبعد ذلك صدر قرار وزاري ينص على تحديد حدود "*مرسى المهدية – القنيطرة*" والمرافق التابعة لها. وفي سنة 1917 تم تقديم تصميم الميناء الذي يشمل على مكونات ميناء القنيطرة ومرافقه. وقد جاء تصميم الميناء على شكل "مجمع" تتداخل فيه ما هو مرتبط بالملاحة بما يتعلق بعمليات الشحن والتفريغ، إضافة إلى المخازن والمستودعات والمصالح الإدارية والمرافق الضرورية في كل منشأة اقتصادية. ويسمح التصميم الكلي والتصاميم الفرعية بالوقوف على مكونات ميناء القنيطرة.

تمتد منشآت الميناء على مساحة ثلاثة وسبعين هكتارا وألفين وأربعمائة متر مربعة. ويشكل الرصيف أهم عنصر بالميناء، فبعدما كان رصيف ميناء القنيطرة لا يتعدى 18 م، تمت، في المرحلة الموالية إقامة رصيف آخر داخل مجرى النهر في المنطقة التي تغمرها المياه أثناء عمليات الجزر. شرعت شركة المراسي المغربية للمهدية - القنطرة والرباط – سلا، في بناء رصيف قاري على شاطئ الواد بالإسمنت المقوى منذ 1916 على طول يمتد على مسافة 1000 م.

التصميم الهندسي لميناء القنيطرة

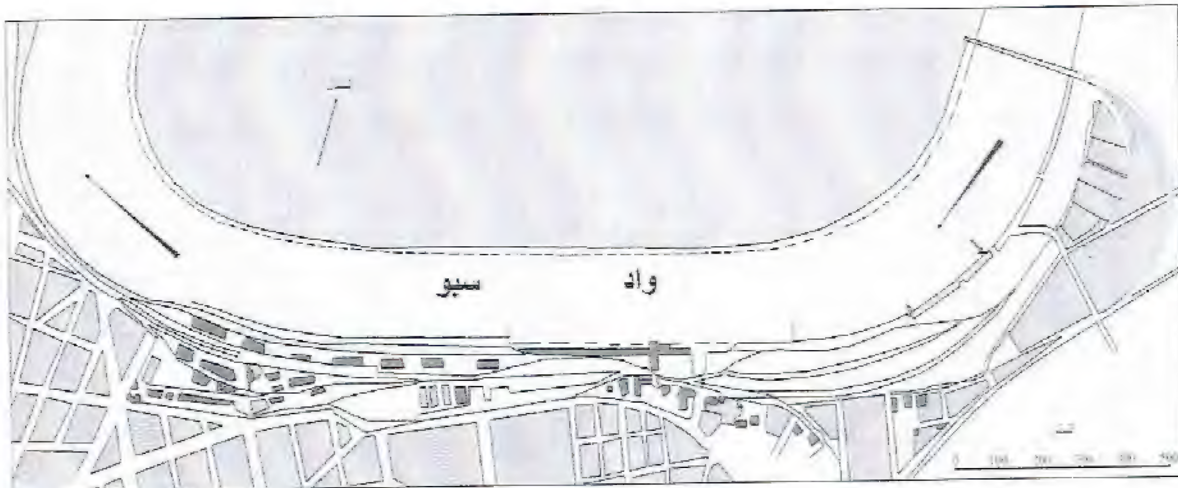

المصدر : عمل خاص انطلاقا من تصميم ميناء القنيطرة ومرافقه الذي قامت به سلطات الحماية ابتداء من 24 ديسمبر 1914 إلى 24 يناير 1916

كان من نتائج توالي إنجاز وتوسيع الرصيف أن أمتد على طول 2 كلم و 2 إلى 300 م في العرض. ويتشكل ميناء القنيطرة، انطلاقا من الأسفل في اتجاه العالية، من الأرصفة :

1 - رصيف دوبروي (Quai Dubreuil) يصل إلى 224 م مبني على ركائز مغروسة في عمق الواد بواسطة الإسمنت المسلح .

2 - رصيف مكناس (Quai Meknès) تمت إعادة بنائه سنة 1953. وهو عبارة عن صفائح حديدية ممتدة إلى قاعدة النهر.

3 - رصيف فاس (Quai de Fès) من نفس صنف رصيف دوبروي. يصل طوله إلى 300 م.

4 - رصيف المعادن (Quai à minerai)، يصل طوله إلى 100 م وتم الانتهاء منه سنة 1959.

تجدر الإشارة إلى أن ميناء القنيطرة عرف تعزيزات من حيث التجهيزات فيما يخص آليات الشحن والإفراغ التي تم تزويد الميناء بها على طول فترة اشتغاله إلى أن وصلت إلى : 6 رافعات متحركة بالبخار تصل طاقتها إلى ثلاثة أطنان و 3 رافعات متحركة بالكهرباء تصل طاقتها إلى ثلاثة أطنان، و 3 رافعات متحركة بالكهرباء تصل طاقتها إلى خمسة أطنان. بالإضافة إلى هذه الرافعات، تم تزويد الميناء بـ شاحنة رافعة تصل طاقتها إلى 5 أطنان و4 قطارات، يحتوي كل واحد منها على ثلاث قاطرات لحمل البضائع.

ومن أجل تقديم مزيد من الخدمات تضمن تصميم ميناء القنيطرة إحداث مجموعة من المستودعات المفتوحة (10 مستودعات من مختلف المساحات) لوضع البضائع في انتظار نقلها. تتوزع أغلبية هذه المستودعات عند مدخل الميناء في الجهة اليمنى، بينما يوجد أكبر مستودع في أقصى الجهة اليسرى. كانت هذه المستودعات محاطة بأسوار أو مسيجة تضمن حفظ البضائع، كما أنها كانت مفتوحة لاستقبال أكبر كميات من البضائع.

إلى جانب المستودعات المفتوحة تضمن ميناء القنيطرة 10 مخازن مغلقة. تتوزع هذه المخازن في القسم الغربي من الميناء. إذ توجد المجموعة الأولى (6 مخازن) مباشرة على الرصيف. مما سهل عملية التخزين في انتظار الشحن أو الخروج من الميناء. بينما تتوزع المجموعة الثانية (4 مخازن) في الواجهة الشمالية الغربية من الميناء. مما يسهل عملية ولوج الشاحنات والعربات إليها مباشرة من الطرق البرية التي تخترق مدينة القنيطرة في اتجاه الميناء.

شكل خزان الحبوب أو المطمورة (Silos) معلمة ميناء القنيطرة، نظرا لارتفاع بنايتها ودورها العام كخزان لأهم منتوج فلاحي بمنطقة الغرب: إذ تم بناءها على مساحة 6000 م. وتصل قدرتها الاستيعابية إلى 60.000 قنطار. بنيت سنة 1933 م. على الأراضي المنبسطة وراء رصيف فاس. وتشمل كل الأدوات اللازمة للوزن والتجفيف وتنظيف الحبوب. كما تم تزويد هذه الخزانات بآليات تسعف في شحن الحبوب بقدرة 400 طن في الساعة الواحدة. بدأ هذا الخزان في العمل منذ 18 مايو 1933. وقد أكملت هذه البناية بمخزن احتياطي آخر من نفس السعة.

وحيث إن ميناء القنيطرة، هو ميناء نهري بامتياز فقد أهلته خصوصياته الطبيعية أن يحتضن "القاعدة العسكرية النهرية للقوات الجوية الفرنسية الخفيفة والطائرات المائية ". وقد تم استغلال المميزات الهامة لسبو والمتمثلة في صلاحيته لرسو الطائرات المائية. وكذلك لتوفره على مساحة مهمة من الميناء يتراوح عرضها بين 200 و 400 م^2 بفضل المنعطفات الواسعة التي تجعل الطائرات محمية من هيجان البحر ومن تلاطم الأمواج. وفي سنة 1927 أنشئ مركز للطيران على الضفة اليسرى لسبو. وأصبح بذلك ميناء القنيطرة محطة للطائرات المائية لشركة الجو الفرنسية التي تسير على خط أمريكا الجنوبية، كما أمست قاعدة جوية على جانب كبير من الأهمية.

من أجل ضمان سير العمليات بالميناء تم تزويدها بمختلف المصالح الإدارية، ومرافق الخدمات التي تجعل من المنشأة الاقتصادية مجمعا قائم الذات مستقل عن المرافق الأخرى، ويتطلع إلى لعب الدور قاطرة التنمية، بل والتنافسي على المستوى التجاري ما بين جهة الغرب من جهة، ومن جهة ثانية مع ميناء الدار البيضاء.

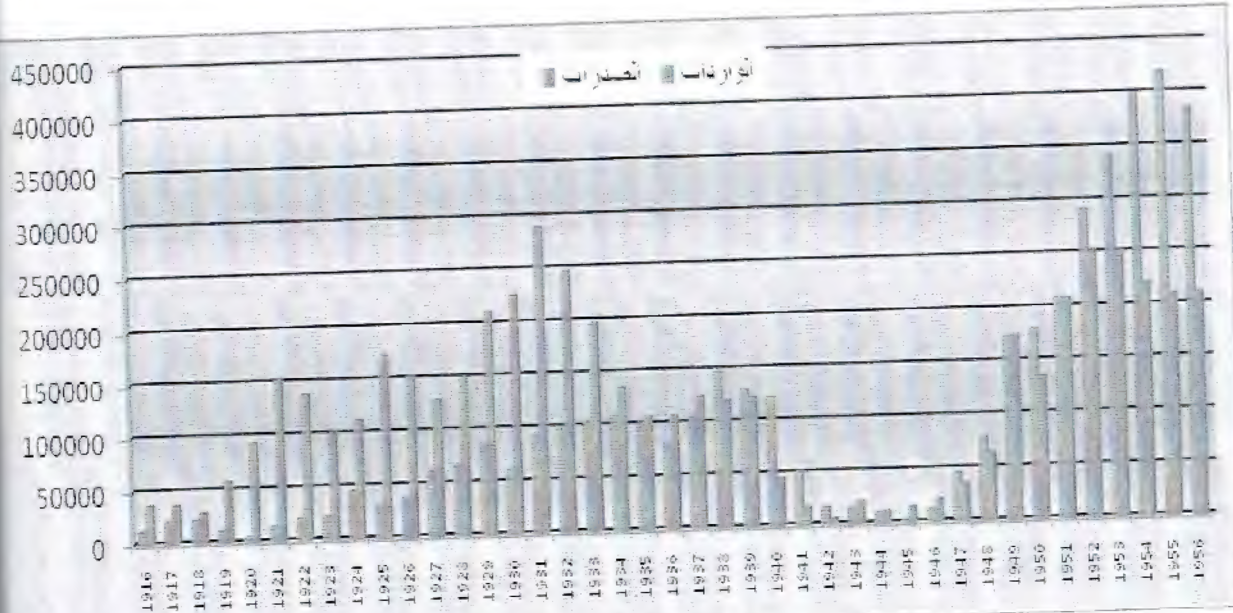

الحركة التجارية بميناء القنيطرة ما بين 1916 و 1956

يكشف الرسم البياني للحركة التجارية بميناء القنيطرة ما بين 1916 و 1956 عن مستويين : يتجلى المستوى الأول في القراءة الأفقية للحركة التجارية للميناء عموما، والتي يمكن أن نميز فيها بين مرحلة الانطلاقة من 1916 إلى 1920 و مرحلة الاستقرار حتى 1940، تلتها مرحلة الركود إلى 1948 قبل أن تعرف انتعاشا وتطورا حتى 1956. أما المستوى الثاني ويخص تقاطع الصادرات والواردات. فنلاحظ أنه إلى حدود 1934 كانت الواردات تطغى على الصادرات قبل أن تعرف نوعا من التوازن إلى حدود 1947، لتتجاوز الصادرات الواردات. وبذلك يلخص هذا الرسم البياني إلى حد ما تاريخ الحركة التجارية التي عرفها ميناء القنيطرة خلال فترة الحماية الفرنسية، كأحد الأقطاب الاقتصادية التي لعبت دورا أساسيا في تنفيذ مشروع الحماية الفرنسية بالمغرب.

وتجدر الإشارة إلى أنه كان من نتائج هذه الحركة التجارية أن استقرت بالقنيطرة، وخصوصا في المناطق المجاورة للميناء مجموعة من الشركات الفرنسية والأوربية المهمة مثل الشركات المجهولة الاسم والشركة العامة للنقل الأطلني، والشركة المغربية للفحم والبحرية، والشركة الوهرانية المغربية وغيرها.

3- المراكز الحضرية بمنطقة الغرب خلال الفترة المعاصرة

سيدي يحيى الغرب

مدينة سيدي يحيى الغرب من المدن القديمة، وهي مدينة تقع في سهل جد منخفض حيث يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر بحوالي 30 متر وهي مدينة غابوية تحيط بها غابات الكالبتوس من كل جانب وتمر من وسط المدينة الطريق الوطنية رقم 4 الرابطة بين سيدي سليمان والقنيطرة

تم احداث المدينة مع نهاية القرن التاسع عشر وفي 1919 تم بها إحداث مركز قروي اتبط اسمه بالولي سيدي يحيى بن المنصور. إلى جانب هذا الوالي تعرف مجموعة من ألولياء منهم الوالي سيدي امبارك، سيدي كعاش، والوالي سيدي كرنون

سيدي سليمان

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، تم إنشاء السكك الحديدية سنة 1920 بين الدار البيضاء وفاس، وبناء الطريق الرئيسة الرابطة بين المدينتين السالفتي الذكر. وكان على رأس القوات العسكرية والوجود الفرنسي في المنطقة الرهيب هونري بريو ((Henry Prio الذي أنشأ أول ضيعة فلاحية كبيرة على أراضي خصبة وشاسعة بجوار النهر تجاوزت مساحتها مئات الهكتارات قرب الولي الصالح سيدي اسليمان. إنها الضيعة التي يسميها اليوم سكان مدينة سيدي سليمان بضيعة «بريو» أو ضيعة التازي نسبة إلى الشخص الذي تمكن من تمليكها لفائدته .وبعد إتمام إنجاز هذه التجهيزات الحيوية، تولدت عند هذا الرهيب إنشاء قرية استعمارية سماها سيدي سليمان، نسبة إلى الولي الصالح السالف الذكر على شكل مركز استعماري. وتحول بذلك اهتمام الفرنسيين من دار بلعامري إلى سيدي سليمان.

مشرع بلقصيري Paris Petit

سميت مشرع بلقصيري بهذا الإسم نسبة إلى رجل إسمه بلقصيري كان يقوم بعمليات نقل القوافل التجارية التي كانت تمارس نشاطها التجاري بين فاس وطنجة على مركبه ويعبر بها نهر سبو ونتيجة لهذه العمليات التكرارية والتي أصبحت إعتيادية بالنسبة للناس أصبحت مدينة بلقصيري تحمل إسمه فمشرع أي ممر وبلقصيري إسم رجل كان نقطة اتصال بين قبيلتين هامتين هما قبيلة سفيان وقبيلة بني مالك

تم إنشاء مدينة مشرع بلقصيري في 20 غشت 1913 في موقع يعد قلب سهل سبو الخصب مما جعله نقطة تواصل مهمة سواء عن طريق النقل البحري أو الملاحة النهرية خاصة مع إنشاء ميناء نهري أنداك لنقل السلع عبر سبو طيلة السنة من القنيطرة إلى فاس في 1913 أو عبر النقل السككي بإنشاء الخط السككي فاس، طنجة في 1915

سيدي قاسم

يعود تأسيس مدينة **سيدي قاسم** إلى القرن الثامن عشر ببناء ضريح دفينهم سيدي قاسم بوعسرية على الضفة اليسرى لواد الرضم في مدخل باب تيسرة. ومن هنا بدأت تتشكل النواة الأولى للتجمع السكني لهذه المدينة. تعززت هذه النشأة بإقدام السلطان مولاي إسماعيل (1672- 1727م) ببناء قصبة البواخر قرب ضريح سيدي قاسم بوعسرية حيث استوطن هناك

خمسون (50) جنديا من عبيد البخاري. توجد المدينة حاليا بالمنطقة المعروفة **ظهر الشماخ**. وقد ذهب البعض إلى ذكر سبب هذه التسمية نسبة **لأبي جرير الشماخ** ذلك الأموي الذي دس السم إدريس الأزهر لما هرب من زرهون ووصل جبل عين بودرى.

وسيدي قاسم، هي مدينة البترول كما يسميها بعض الاقتصاديين لأنها تحتوي على معمل تكرير البترول بعدما تم تأسيس الشركة الشريفة للبترول في 29 ابريل عام 1929،الأمر الذي جعل سلطات الحماية تغير اسمها العربي هو سيدي قاسم إلى اسم بوتي جو Petit Jeau نسبة إلى أحد الضباط الفرنسيين حين تم تأسيس ثكنة عسكرية انطلاقا من عام 1914 بعدما اكتشف الفرنسيون البترول في جبال سلفات ومنطقة عين الحمراء عام 1923. و مع إحداث خط السكة الحديدية الرابط بين الرباط و فاس سنة 1923 و خط طنجة فاس سنة 1927 م بدأت المدينة تلعب دورا مهما في المجال الإقتصادي. و في 29 أبريل 1929 تم تأسيس الشركة الشريفة للبترول التي أعطت دفعة سريعة للتطور الحضري بكل أبعاده للمدينة. و بعد حصول المغرب على الإستقلال سنة 1956 أعطت الحكومة المغربية أمرها تغيير بعض أسماء المدن من الفرنسية إلى الغربية حيث أصبحت تعرف بمدينة سيدي قاسم نسبة للولي الصالح سيدي قاسم بوعسرية .

المحور السابع: التنمية الجهوية بمنطقة الغرب والموروث التاريخي والثقافي.

تعتمد المخططات الاقتصاد الجهوية والوطنية على استغلال الموارد الطبيعية وتوظيف التراكمات التاريخية. وتشكل المواقع الأثرية، إحدى الرافعات الرئيسية التي تعطي لكل الراغبين في المساهمة في التنمية إمكانية توظيفها عبر خلق "مقاولات نفعية" تؤمن دخلا قارا. وتقدم الجامعة أرضية معرفية لهذا "المنتوج" من خلال التعريف بالمواقع الأثرية للمنطقة، وكذا تأهيل الطالب الجامعي لإحداث مقاولة خاصة. يبقى على الراغب النبيه أن يوظف مكاسبه الجامعية من أجل تحقيق ذاته عبر خلق مشروع تنموي يتخذ من المواقع الأثرية مطية.

إن التفكير في مشروع يسعى إلى تخويل المواسم القبلية والدينية وظائف تنموية تستجيب للسياقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية الجارية، أمر يبدو في غاية التركيب والتعقيد .. من حيث إن ذلك يستدعي مشاريع محلية وقطاعية للتنمية متوافق مع مخططات واستراتيجيات وطنية كبرى توجه و تؤطر مثل هذه المشاريع، وإلا بقيت مجرد " عمليات " بدون عمق وامتداد يضمنان نجاعتها. والحال أننا لا نلمس بقوة ما يفيد وجود مثل هذه الاستراتيجيات، وإن كانت بعض المؤشرات تتجه نحو تحقيق مكاسب تنموية (مؤشرات التنمية البشرية مثلا) *IDH* وأخرى تفيد بوجود مخططات ذات قيمة اقتصادية، خضراء (الفلاحة) وزرقاء (الصيد البحري)، إلا أن انعكاساتها الاجتماعية لا تبدو مضمونة.

1 - المواقع التاريخية والأثرية : تراث حضاري "غرباوي"

تعتبر منطقة الغرب أغنى جهات المغرب بالمواقع الأثرية والتاريخية والسياحية والطبيعية. وهي متنوعة وممتدة في الزمان من الفترة القديمة إلى الفترة المعاصرة. وتحضن الجهة أهم مواقع المراكز الحضرية التي شكلت النواة الأولى لظاهرة التمدن بشمال إفريقيا. تزخر باديها ببنايات قروية ذات طابع حضري إلى جانب البنايات القروية المحلية.

ما يثير الانتباه في توزيع هذه المواقع الأثرية أنها منتشرة على مجموع التراب الغرباوي ولم تتركز في منطقة محددة، مما يدل على استغلال الإنسان لكل المجال الذي يتوفر على مؤهلات طبيعية تساهم في الانتشار لا التكتل. كما أن هذه المواقع الأثرية تغطي كل الحقب التاريخية من الفترة القديمة والوسيطة والحديثة والمعاصرة، وهي بذلك تدل على تعاقب الاستغلال وقابلية المنطقة لاستقبال المجموعات البشرية التي توافدت عليها المنطقة منذ الفترة القديمة إلى الآن.

تشمل هذه المواقع الأثرية مدن مثل بناصا وقلاع عسكرية مثل تاموسيدا إلى جانب منازل حضرية وقروية. كما تتوفر المنطقة على آثار لمواقع حربية أو أحداث تاريخية لا تزال بعض الآثار بارزة وتتناقل أحداثها الساكنة المحلية. إلى جانب هذه المواقع تتوفر المنطقة أيضا على معالم تاريخية من قبيل القصبات والمعسكرات والقناطر ومجموعة من البنايات التاريخية التي تشهد على مجد تاريخي عرفته المنطقة عبر تاريخها. أخيرا فإن المنطقة لها آثار مزارات وأضرحة تدل على تعايش الديانات بالمنطقة بالإضافة إلى مساجد وكنائس وبيع، مما يؤكد على أن المنطقة استطاعت أن تمتص المجموعات البشرية وتتعايش فيها كل المعتقدات الدينية والثقافية.

تعطي دراسة المواقع الأثرية بمنطقة الغرب إمكانية الوقوف على أهمية هذه الآثار التي تؤرخ لفترات غابرة في التاريخ، وتشهد على مدى النعم التي تنعم بها منطقة الغرب بدءا بموقعها الجغرافي إلى الشواهد الأثرية. مما يؤكد على أهمية الدراسة والتعريف والتحسيس والمحافظة والاستغلال للمواقع الأثرية بمنطقة الغرب. فهي تراث تاريخي إنساني تحتضنه منطقة الغرب، التي على مؤسساتها استغلال هذا التراث الأثري.

إن ما يدل على أن هذا التراث عالمي هو مساهمة كل شعوب حوض البحر البيض المتوسط في هذا التراث، بدءا من الأمازيغ والقرطاجيين والرومان والعرب والأوربيين حتى الأمريكيين. كان لهذا التعاقب أن انصهرت كل المساهمات في مجال جغرافي، هو منطقة الغرب. وما توالي نزوح القبائل المغربية إلى المنطقة واستقرار المجموعات البشرية المتنوعة بها، إلا دليل على جاذبيتها وأهميتها.

يكمن "الطابع الغرباوي" للمواقع الأثرية أولا في تبني هذه المواقع واحتضانها من قبل المهتمين لا تنسيبُها إلى الحضارات الأخرى التي بصمت فترتها بالموقع الأثري. إذ أن بناصا هو موقع موري قبل أن تتحول إلى مستوطنة رومانية. كما أن القنيطرة، كانت محلة مخزنية مغربية قبل أن يؤسس الجنرال اليوطي مدينة بور ليوطي. ومن ثم، فإن إعادة التبني "الغرباوي" للمواقع الأثرية هو مسؤولية كل من المواطنين والمسؤولين، كل من موقعه، من أجل استغلال التراث الأثري في التنمية المحلية.

2 – الجامعة وتأهيل السياحة العلمية والثقافية

تُفيد السياحة "*حركة الأفراد والجماعات خارج الحدود السياسية للدولة التي يعيشون فيها لفترة تزيد عن أربعة وعشرين ساعة وتقل عن عام واحد. وهي ظاهرة طبيعية أوجدها العصر لحاجة الإنسان إليها ورغبته في إعادة تكوين الذات عبر مجموعة العلاقات البشرية والطبيعية التي تنتج عن السياحة*". فقد أصبح ينظر للسياحة في عديد من الدول وخاصة في الدول النامية على أنها وسيلة هامة من وسائل الاستثمار، خاصة أن هناك تحولا كبيرا في المسارات السياحية نحو الدول النامية التي أخذت تنافس الدول المتقدمة في الجذب السياحي. فهي مصدر دخل للعملات الصعبة، مما يساهم في ميزان الدولة، ودعم الاقتصاد الوطني مثل اليونان والمكسيك اللتين اعتمدتا على السياحة في تخفيف العجز في ميزان المدفوعات. كما أنها تساهم في تشغيل اليد العاملة بكافة مستوياتها من مترجمين للسياح إلى الخدمات الدنيا، مما يساهم في التنمية والاستثمار.

إن منطقة الغرب تتوفر على أرضية خصبة لمشاريع سياحية ثقافية. فمن الضروريات لبناء هذه المشاريع توفر إمكانيات وسهولة الوصول لمناطق الجذب السياحي، ثم توفر الخدمات مثل المياه والنقل والمواصلات والاتصالات السلكية واللاسلكية. وهي عناصر متوفرة بمنطقة الغرب غير أنها تفتقد إلى أرضية الاستغلال والاستثمار من فنادق ومطاعم وغيرها.

تمكن المواقع الأثرية بالمنطقة من تقديم خدمات سياحية يمكن أن نميز فيها بين : السياحة الترفيهية : ويقصد بها استثمار أوقات الفراغ بعيدا عن العمل ومسئولياته في السياحة من أجل المتعة والراحة. وقد يطلق عليها سياحة وقت الفراغ : وهي أكثر أنواع السياحة انتشارا في العالم لوجودها في جميع أماكن السياحة. ولها هدف عام هو قضاء العطلات والحصول على الإشباع النفسي والعقلي. الخ. وهي غالبا ما تكون داخلية تستقطبها الشواطئ والغابات والمناظر الطبيعية. وتغيب عنها المواقع الأثرية، مما يشكل نقصا حادا في المنتوج السياحي الداخلي، ومنطقة الغرب مؤهلة من حيث مواقعها لهذا الصنف من السياحة الترفيهية.

السياحة الثقافية، هدفها اكتساب المعلومات والحصول على ثقافة واسعة ولها منافع عديدة تتمثل في إقامة المعارض والمتاحف والأسواق والمعابد والمناسبات الثقافية والأماكن الأثرية وغيرها مما يكسب ثقافة جديدة تضاف إلى المعرفة. يرمي انتقال السائح إلى هذه المواقع التعرف على التراث التاريخي للمنطقة. وتنشيط هذه السياحة في معظم بلدان العالم المتقدمة والنامية بل أنها تعتبر من الرافعات الأساسية في اقتصاد مجموعة من الدول مثل إسبانيا واليونان ومصر والميكسيك.

وأخيرا، تهدف السياحة التاريخية إلى التعريف على آثار الشعوب وحضاراتها، حيث يقوم السائح بزيارة المواقع الأثرية والمتاحف، ويحضر المعارض المتنوعة. وتجذب هذه المواقع الزائرين من داخل الدولة وخارجها مثل البتراء بالأردن والأهرامات بمصر وسور الصين العظيم الذي يمتد لمسافة 1500 ميل. وفي المغرب لا يزال موقع وليلي الأثري يتصدر الصدارة بالنسبة المواقع الأثرية بالمغرب التي تجذب كل من السياحة العلمية والثقافية.

تعطي المواقع الأثرية بمنطقة الغرب سواء منها الحضرية مثل موقع بناصا وموقع تاموسيدا والمواقع القروية والقلاع العسكرية والمواقع التاريخية أرضية خصبة لتنمية السياحة المعرفية. ويبقى على كل الفاعلين والمهتمين بلورة مشاريع معرفية تؤطر هذه الاستثمارات التي تساهم بشكل فعال في التنمية الجهوية عبر توظيف المواقع الأثرية.

3 – التراث الثقافي والتربية على المواطنة الجهوية.

يشكل التراث الثقافي أساس التنمية الجهوية أو المحلية، باعتبار أن هذه الأخيرة عملية تنطلق من الداخل ولها أربعة مقومات تتمثل في : النمو والتقدم والاعتماد على الذات والاستدامة. يشكل النمو العنصر الأساسي الأول، وهو مادي وكمي يتمثل في تطور الثروات وتراكمه ونمو الإنتاج المادي واللامادي وللاقتصاد يفضي حتما إلى تغيير نوعي وهيكلي على المستوى المادي والذهني يتمثل في التحديث والحداثة من خلال التحسن النوعي لظروف الحياة وإطار العيش. يرتبط هذا التطور النوعي ويتلازم مع الاعتماد على الذات والاستقلالية الذاتية، التدريجية والنسبية، والتي تضمن بدورها الاستدامة من حيث النسق والدينامية والاتجاه والنتائج وهو ما نسميه اليوم " "التنمية المستدامة".

فالتنمية المحلية تستوجب وتتجاوز النمو المادي والمرافق والخدمات ولا تقتصر على هذين المقومين الأساسيين لتتعدى إلى ما هو هيكلي وبنيوي أي النهوض بالجهة أو بالمنطقة من الداخل وجعلها تقوم بدور فعال على المستوى الوطني بشكل متكافئ مع الجهات الأخرى لتسهم في صيرورة البلاد والوطن ولا يتم ذلك إلا من خلال تمكين الجهة من آليات وإمكانات الاعتماد على الذات تبعا لإمكاناتها وخصوصياتها ومعوقاتها وتمكين الجهة من مقومات الاستقلالية الذاتية والاستدامة. ولا تقتصر التنمية الجهوية على خلق مواطن شغل أو بعث بعض المشاريع أو المرافق وتمثل كلها أركان أساسية متلازمة. فهي تتمثل أساسا في نفس الوقت في توفير الشغل وإنشاء التجهيزات الأساسية والاقتصادية وبعث المرافق الاجتماعية.

تنطلق هذه التنمية المحلية من توظيف الخصوصيات الطبيعية والتراث والثقافية كمؤهلات لتطوير السياحة المحلية والتربية على المواطنة والمحافظة على الهوية المحلية. الأمر الذي دفع بالعديد من الدول إلى رد الاعتبار لتراثها المادي واللامادي والحفاظ عليه من خلال إنشاء العديد من الهيئات والمؤسسات الراعية للموروث الحضاري المادي وغير المادي من قبيل إحداث :

مراكز الأبحاث والدراسات؛

متاحف التراث المادية؛

نشر المطبوعات والدوريات لتنشيط الوعي بأهمية التراث؛

إحداث برامج تربوية في المدارس تهم الموروث التاريخي والتراث المحلي.

إن إشكالية تثمين التراث تقتضي وضع استراتيجية تعتمد على إحداث مراكز لاقتصاد التراث في المجالات المعنية وذلك وفق المميزات والخصائص التي يتميز بها المجال، وللوصول إلى ذلك لابد من وضع خطة محكمة نستطيع من خلالها تحديد نوع التراث والأساليب المعتمدة لتثمينه وبالتالي تحقيق التنمية المنشودة.

إن حماية التراث المادي و اللامادي يشكل هدفا استراتيجيا يجب أن تعمل على تحقيقه كافة الهيئات والمنظمات المدنية والمؤسسات الجامعية التي لها علاقة ما بالتراث، ليس فقط لأهمية التراث المحلي الغرباوي كجزء هام في تشكيل صورة التراث الإنساني بشمال إفريقيا فقط، بل ولأنه يشكل الهوية والذاكرة الجماعية للغرباويين على مدار التاريخ و يساهم في التنمية الجهوية. إن الاهتمام بالتراث من شأنه أي ينمي البرامج السياحية المحلية، وفي نفس الآن يقدم أرضية تاريخية لتربية الأجيال

المتعاقبة وتوظيف الموروث التاريخي والثقافي في صقل المواطنة الجهوية القائمة على الاعتزاز بالعطور التاريخية والافتخار بالحمولة الثقافية.

تتطلب مشاريع التنمية الجهوية المرتبطة بالموروث التاريخي والثقافي :

- ❖ الإيمان بخلق المقاولات الخاصة، كرافعة أساسية في التنمية البشرية والجهوية؛
- ❖ البحث عن التمويل من الهيئات الدولية المعنية بالحفاظ على التراث الثقافي والتاريخي والطبيعي؛
- ❖ إنشاء مراكز تاريخية وتراثية للمحافظة على الذاكرة الجماعية وتثمين مختلف الموارد النادرة بمنطقة الغرب؛
- ❖ القيام بتنظيم ورشات في المؤسسات التعليمية بتنسيق مع الهيئات والمؤسسات الدولية حول التراث؛
- ❖ إنشاء جمعيات قطاعية تهتم بكل نوع من أنواع التراث؛
- ❖ تأسيس هيئة خاصة بالمواقع التاريخية والأثرية حول المواقع تتولى مهمة التعريف والدفاع عنها ؛
- ❖ استغلال وسائل التواصل الحديثة من أجل التسويق الجيد لتراثنا الجماعي وطنيا وعالميا.

إن التربية على المواطنة تنطلق من الوعي بالانتماء إلى المنطقة التي يعيش فيها الفرد، كما أنها تتطلب إدراك الخصوصيات الطبيعية والتاريخية والثقافية للمنطقة والتي من شأنها أن تساهم في إنماء الشعور بالغيرة على الموروث الثقافي والإرث التاريخي الذي هو أساس المواطنة. وعليه تبقى التربية والتكوين والتحسيس والتذكير من الوسائل الضرورية في غرس روح المواطنة لدى الناشئة تمدوا مع تراكم المعرفة الجامعية وتتحول إلى أرضية خصبة لإحداث مشاريع تنموية خاصة.

خاتمة

تسعف الدراسة التاريخية والأركيولوجية للمواقع الأثرية بمنطقة الغرب في إدراك أهمية موروثها الحضاري المادي الذي يختزل خصوصياتها الثقافية المتعاقبة عبر الزمن، وهو بمثابة المحك الأنصع لاستظهار مدى تجدرها وتلاقحها مع ثقافات الشعوب الأخرى. ومنطقة الغرب، بموقعها الاستراتيجي المتميز، كنقطة التقاء، محورها عنصر الأمازيغية والعربية والأفريقية والأوربية جعل من مجالها الحضري والقروي ميدانا خصبا لاحتضان تراكمات تراث عمراني مادي، فرضتها احتياجاتها التلقائية أحيانا، والاكتساحات الأجنبية تارة أخرى، مما أفرز تراثا ماديا متعدد الأصول والحقب والأشكال. لا يعوق استثماره بالصورة المثلى، راهنا، إلا ضبطه والتعريف به من جهة، ومن جهة أخرى، دراسته وتأهيله وصيانته، من أجل تسويقه "كمنتوج" سياحي ثقافي وتاريخي.

وتعتبر بنايات المواقع التاريخية والأركيولوجية بمنطقة الغرب معالم تاريخية وتراثا عمرانيا وإرثا حضاريا، يختزل العلاقات بين ضفتي حوض البحر الأبيض المتوسط، ويكشف عن التلاقح والتواصل بين مختلف الفترات التاريخية والتواصل والتوارث بين أهم الحضارات التي تعاقبت على بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط.

ويبقى على الدارسين والمهتمين توجيه مزيد من المجهودات للتاريخ الجهوي الذي يُعطي إمكانية الوعي بالذات في إطارها المجالي والزمني والخوض في غمار الإجابة عن :

من أنا ؟

لماذا أنا هنا بهذه المنطقة ؟

كيف لي، "أنا الطالب بمسلك التاريخ والحضارة، بجامعة ابن طفيل، القنيطرة" أن أوظف المعرفة التاريخ التي إكتسبتها، والمواقع الأثرية التي تزخر بها منطقة الغرب في تحقيق الذات عبر خلق مشاريع ذاتية تنموية في إطار مؤسساتي ؟

خاص بالطالب (ة) :

....

....

....

....

....

....

....

....

....

Nom...YOUSSEF............	الاسم الشخصي...يوسف...........
Prénom..................................	الاسم العائلي..................................
Numéro d'Apogée......................	رقم الأبوجي..................................